د. محمد بن عبدالله الدويش

علمتني الأخطاء

الطبعة الأولى
دار الحضارة للنشر والتوزيع

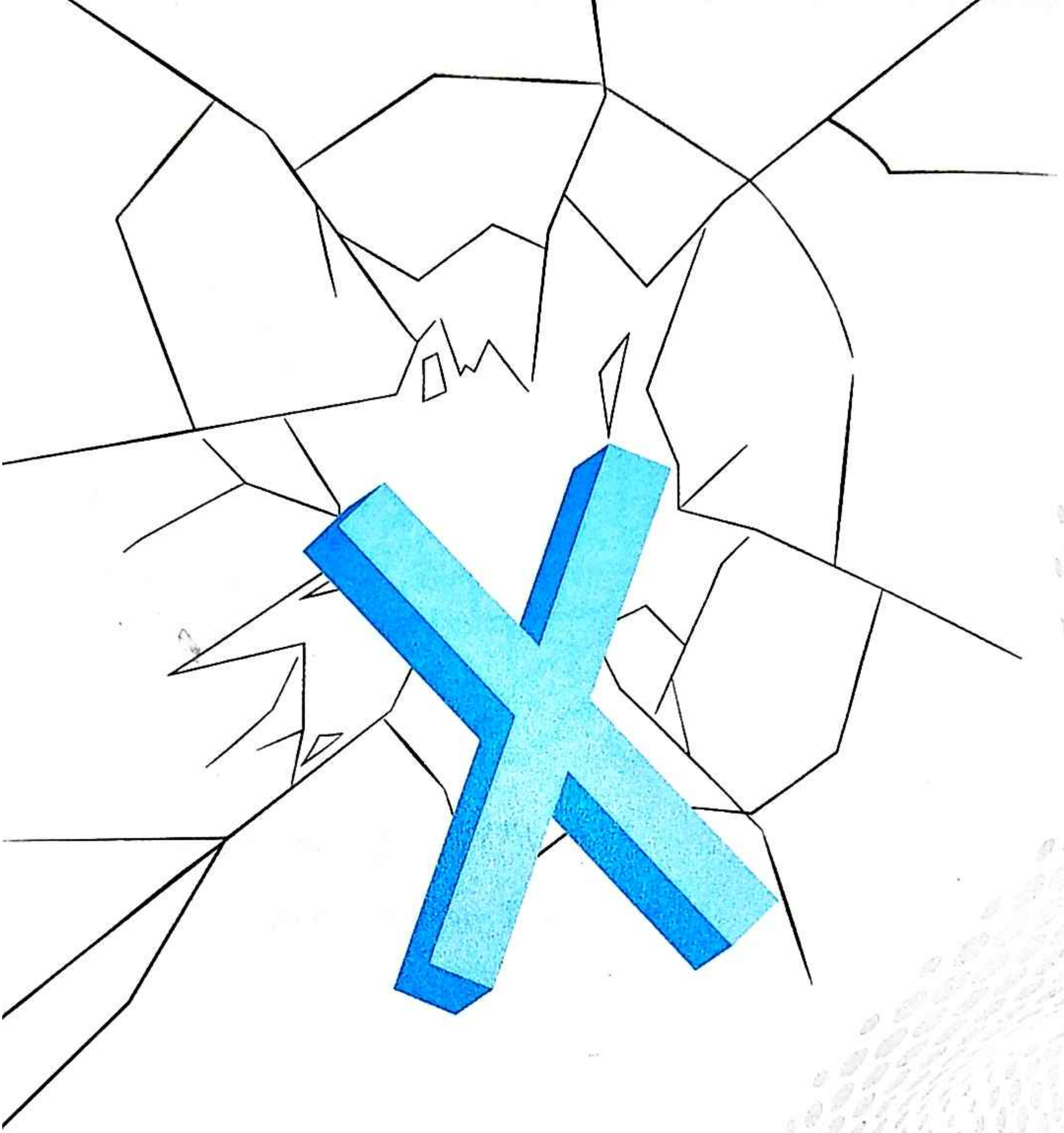

علمتني الأخطاء

د. محمد بن عبدالله الدويش

ح دار الحضارة للنشر والتوزيع، ١٤٤٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الدويش، محمد بن عبدالله بن إبراهيم

علمتني الأخطاء./ محمد بن عبدالله بن إبراهيم الدويش.-

الرياض، ١٤٤٠هـ

ص١٦٦؛ ١٤×٢٠سم

ردمك: ٩-٣٥-٨٢٥٣-٦٠٣-٩٧٨

١- النصائح أ- العنوان

ديوي ٢١٣ ١٤٤٠/٣٢٥٠

رقم الإيداع: ١٤٤٠/٣٢٥٠

ردمك: ٩-٣٥-٨٢٥٣-٦٠٣-٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ/٢٠١٩م

تصميم و إخراج

0500594534

Mustafa-h123 @hotmail.com

دار الحضارة للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض

daralhadarah@hotmail.com

الرقم الموحد: 920000908 الفاكس: 2702719 - 011

@daralhadarah 0551523173

زوروا متجر الحضارة: hadarah.store

متجر الحضارة

HADARAH • STORE

بسم الله الرحمن الرحيم

علمتني الأخطاء

مقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين؛ محمد بن عبدالله الصادق الأمين.. وبعد:

فالضعف والقصور من صفات البشر اللازمة، لن يتجاوزوه ما داموا بشرًا، والتعليم والنضج والخبرة تحسِّن من أداء الإنسان، لكنْ لا تُلْغِي احتمال وُقُوع الخطأ منه.

حين تتأمَّل منتجًا بشريًّا فلستَ بحاجةٍ إلى مزيد جهدٍ وتأمُّل لتكتشف الضعف والقصور.

ترى الضعف والقصور حين تقرأ لعالِم فقيهٍ، أو مفكِّر، أو تتأمل عملاً أدبيًّا، أو منتجًا فنيًّا.

وتراه في عملٍ يُنجزه عامل حِرَفِيّ في منزلك، أو سيارتك، أو أحدَ أجهزتك.

وتراه على أهل بيتك؛ في حياتهم وشخصيتهم، في طعامهم وشرابهم.

وتراه في المشروعات والبرامج الدعويَّة والاجتماعيَّة، مهما اجتهد أصحابها في الجودة والإتقان، وفي المشروعات الاقتصاديَّة والتجاريَّة، وأعمال القطاع العامّ والخاصّ.

فالوقوع في الخطأ سِمَةٌ بشريَّةٌ، وهو جزءٌ من طبيعة الإنسان وتكوينه، مهما بلغ علمًا وإيمانًا وتقوى.

عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، قال: قال رسول الله ﷺ: «والَّذِي نَفْسي بيده لو لم تُذْنِبوا لذَهَبَ الله بكم، ولَجَاء بقومٍ يُذْنبون، فيستغفرون الله فيغفر لهم» [أخرجه مسلم ٢٧٤٩].

وحين حضرت أبا أيوب -رضي الله عنه- الوفاة قال: كنت كتمتُ عنكم شيئًا سمعته من رسول الله ﷺ؛ سمعتُ رسول الله ﷺ، يقول: «لولا أَنَّكم تُذنِبونَ لخلقَ اللهُ خلقًا يُذنِبونَ ويغفِرُ لَهم» [أخرجه مسلم ٢٧٤٨].

وهذا التوجيه النَّبويّ ليس دعوةً منه ﷺ لأُمَّته

للاستهانة بالذنوب والخطايا، وإنما هو تأصيلٌ لهذا المعنى، وتوضيح للطبيعة البشريَّة.

الخطأ تجربة بشريَّة ثريَّة يتعلَّم منها الإنسان، ويتعرَّف كثيرًا من مواطن ضعفه وقصوره، يكتشف من خلال الخطأ أن طرقًا ما لا توصِّله لما يريد، ويتبيَّن من الخطأ كثيرًا من قواعد إدارة حياته، ومعالم تعامله مع الآخرين.

وحين ننظر إلى الخطأ بوصفه معلِّما ومُلْهِمًا وقائدًا للصواب فلا يسوغ أن نغفل عما فيه من مفاسد، وما يولِّده من مشكلات عدة؛ فالتعلُّم من الخطأ لا يعني أنه خيرٌ مَحْض، وكثيرٌ من الأخطاء يَصْدُق عليها قول الله -جل وعلا- عن الخمر والميسر: ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة:٢١٩].

الإفادة من الخطأ لا يسوغ أن تقودنا إلى التهوين من شأنه، ولا تبرير وقوعه، أو تقليل تَبِعته.

كغيري من الناس مَرَرْتُ بأخطاء وتجارب لم

أُوَفَّق فيها، منها ما أدركته ووعيته، وتعلمت منه الكثير، ومنها ما خَفِيَ عَلَيَّ، ومنها ما مارست -كغيري - طائفة من الحِيَل النفسيَّة للهروب من الاعتراف به.

أحببت أن أقف مع بعض أخطائي وقفةَ تأمُّل، وأشارك قرائي هذه التجربة، فكانت هذه الأوراق.

إنها تجاربُ وأخطاء في تعاملي مع الآخرين، وهي مواقف متباينة مختلفة، لا يجمعها إلا الوقوع في الخطأ.

وهي لا تُمَثِّل إلا نماذج ونزرًا يسيرًا مما أتذكره، اخترت منها ما أرى أنه يلائم النشر والحديث، وتجاوزت الكثير تخفُّفًا، أما ما بيني وبين ربي فأسأله -سبحانه- أن يُتِمَّ فيه عليَّ ستره في الدنيا ويوم العرض عليه، وأن يجعلني من أهل العافية والإنابة.

ولا أنسى في نهاية هذه السطور أن أُزْجِي الشكر والدعاء للأستاذة: نبيلة الوليدي، التي تولَّت تحرير هذا الكتاب، فقد سجَّلتُ موادَّه صوتيًّا، وتولَّت هي

التحرير وتعديل الصياغة بما يلائم المادة المكتوبة، ثم قمتُ بعد ذلك بمراجعته، والحذف والإضافة، وتعديل ما رأيت تعديله.

آمل أن يجد القارئ الكريم في هذه السطور بعض ما يُفيده، وأن يقوده للوقوف عند تجاربه الشخصيَّة والإفادة منها.

محمد بن عبدالله الدويش
dweesh@dweesh.com
١٠/ ٠٣/ ١٤٤٠هـ

مدخل في التعامل مع الأخطاء

لا يَسْلم الفرد من الخطأ بصُوَر شتَّى، و مجالات عِدَّة؛ غير أنه يمكننا تصور مجالات الخطأ من خلال بُعْدَين رئيسيين، هما:

أولا: الخطأ في حق الله -جل وعلا-:

منذ أن خلق الله أبانا آدم -عليه السلام- والصراع قائمٌ بين الشيطان وآدم وذريته؛ فاستدرج الشيطان أبانا وأُمّنا لمعصية الله -عز وجل-، والأكل من الشجرة التي نُهِيَا عنها، فهبط آدم وحواء إلى الأرض التي خُلِقَا ليكونا خليفةً فيها.

وقد أقسم الشيطان أن يسلك كل المداخل، ويَطْرق كل الأبواب ليُغْوِي بني آدم، قال سبحانه عن كيده: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦- ١٧].

وبعد سَرْد قصة آدم والشيطان؛ حذَّر الله -سبحانه وتعالى- بني آدم من كيد الشيطان وفتنته، فقال -سبحانه-: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأعراف:٢٧].

وخطأ ابن آدم في حقّ الله يتمثّل في معصيته -سبحانه وتعالى-، إما بترك ما افترض عليه، أو فعل ما حرَّم عليه -عز وجل-.

والعبد في حاجة لرعاية حدود الله -عز وجل، ودوام الحذر والبعد عن معصيته -سبحانه-، وتعظيم خطئه في حق مولاه وخالقه؛ فقد يوفّق الإنسان في التوبة من الإثم وقد لا يوفّق، وقد تُقبل توبته أو تُرد لسببٍ يتعلق بمدى صدق توبته.

وليحذر ابن آدم حين يقع في الخطيئة من الاستهانة بها، والاستخفاف بشأنها، بحُجَّة أن الإنسان لا يَسْلم من الوقوع في الخطأ.

ثانياً: الخطأ مع الذات والآخرين:

ويتمثَّل ذلك في أخطائنا مع النفس، ومع الناس، وآثار هذه الأخطاء السلبية على الإنسان والحياة جليَّة؛ فكثير من حالات الفشل التي يقع فيها الناس منشؤها أخطاء ارتكبوها.

فتعثُّر الطالب في دراسته قد ينشأ عن خطئه في اختيار مجالٍ لا يتناسب مع ميوله وقدراته، أو تقصيره في بذل الجهد والاستعداد.

وربما كان سبب خسارة بعض الأشخاص لأعمالهم ووظائفهم أخطاء ارتكبوها في العمل؛ كعدم إتقانهم للعمل، أو ضعف التزامهم به، أو قصور إنجازهم.

وحتى أولئك الذين يدَّعون بأنهم قد ظُلِمُوا في مجال عملهم أو دراستهم، فكثير منهم كان سوء أدائهم أحد أهم الأسباب التي أدَّت إلى وقوع نوع من الظلم عليهم، وتعرُّض الفرد للظلم لا يعني براءته التامة من التقصير؛ فكثير من صور الظلم

كانت مبالغة في العقوبة، أو على الأقل توظيفًا لأخطاء صدرت من المظلوم.

والحال نفسه فيما يخص العلاقات الأسريَّة؛ فكثير ممن فشلوا في حياتهم الزوجية كان سبب ذلك وقوعهم في أخطاء عميقة منذ البداية كعدم الاختيار الصحيح لشريك الحياة، أو سوء إدارتهم لحياتهم الزوجية، كفشلهم في احتواء الأزمات، أو ضعف قدرتهم على التعامل مع المشكلات الناشئة في بيت الزوجية.

وفي حالات عديدة لا يكون أحد طرفي العلاقة الزوجية هو المتسبِّب مباشرة في الفشل، غير أن إدارته الخاطئة للأزمات، وردود فعله تجاهها، أو تقصيره في احتوائها وحسن التعامل معها كانت سببًا مباشرًا في فشل العلاقة.

والعديد من حالات الفشل في تربية الأولاد مصدرها الخطأ؛ إما خطأ معرفي وجهل بأساليب التربية وطرائقها، أو بالتقصير في الرعاية والتنشئة

والتوجيه، أو بالتسويف في التعامل مع المشكلات حال ظهورها وتأجيل معالجتها حتى تتفاقم.

وفي النطاق الدعوي نرى أن كثيرًا من حالات الإخفاق مبدؤها الوقوع في الخطأ؛ إما في مجال العمل الدعوي، أو عند اختيار ميدانه، أو بالتعامل السيئ مع ردود الأفعال، وضعف التعامل مع المشكلات الدعوية.

وهذا لا يقتصر على الأفراد والمؤسَّسات الدعويَّة والخيريَّة؛ فكثير من الإخفاقات الفرديَّة والمؤسسيَّة في ميدان التجارة والأعمال كان مصدرها الخطأ.

كما أن معظم الأخطاء يترتب عليها أعباء وتبعات نظاميَّة وقانونيَّة، يتحمَّل عبئها المؤسَّسة أو الفرد.

وهكذا نَخْلُص إلى أنَّ كثيرًا من حالات الفشل، ومن الخسائر التي تحدث لنا في حياتنا مصدرها الأخطاء، أو التقصير في الوعي بها وتلافيها.

ومن ينال تعويضًا عن خطأ يقع تجاهه؛ لا يَسْلم في الغالب من خسارة في صِحَّته وهدوء باله ووقته،

أو فوات بعض ما لا يتكرَّر من الفُرَص، أو الانشغال بعلاج الخطأ وترميم آثاره عن كثيرٍ من مواقف العطاء والبناء.

فمع أهمية التوظيف الإيجابي للخطأ، واستيعاب الدروس، علينا ألا نَستهين بالخطأ، وأن نَحذر منه، ونَتجنَّب أسبابه، وحين يقع؛ فهذا لا يعني النهاية، فربما كان بداية لحال أكثر نُضجًا.

عتاب لم أنسه من فتاة

قبل بدء استخدام الإنترنت، وانتشار وسائل التواصل التقنية، كان البريد الورقي وسيلة التواصل الأكثر شيوعًا، وقد اعتدت في تلك الفترة على وضع عنواني البريدي في كتبي المطبوعة؛ لكي يتسنَّى لقُرَّائي التواصل معي، وإمدادي بملاحظاتهم ومقترحاتهم - والتي استفدتُ منها كثيرًا - غير أنَّ هذا أدَّى لكثرة الرسائل، وصعوبة التعامل معها؛ فكان صندوق بريدي يكتظُّ بالرسائل المتنوِّعة؛ ما بين سائل، ومستشير، وطالب للمساعدة.. إلخ.

وكنت أبذل قُصارى جهدي للردِّ على الرسائل؛ خاصَّة تلك التي تحوي أسئلة مهمَّة أو استشارةً، وهيَّأت لذلك كافَّة الوسائل المعينة؛ فاستخدمت الحاسوب -قبل أن يشيع استخدامه- وذلك لإعداد نماذج جاهزة للرَّدِّ على الرسائل، وقمتُ بطباعة مظاريف خاصة تحمل عنواني لأستغني عن

إعادة كتابة العنوان على كلِّ مظروف، واستخدمت مظاريف تحوي مربعًا شفافًا يُظهر عنوان المرسل إليه بحيث لا أحتاج لإعادة كتابة العنوان مرة أخرى.

ومع ذلك لابد أن تحصل حالات من التأخُّر في الرد.

قبل قرابة أربعة وعشرين عامًا من تسطير هذا الكتاب حمل إليَّ البريد رسالة موقَّعة باسم "أم همام القحطاني"، حينها اطلعتُ على الرسالة -شأنها شأن غيرها من رسائل الاستشارات- ثم كتبت لها ردًّا على جهاز الحاسوب، غير أنني لما أطبعه بعدُ.

وردني بعدها بأيام اتصال هاتفي من امرأة عرَّفت بنفسها قائلة: أنا أم همام، ثم سألتني مباشرة: هل وصلتك رسالتي؟

قلت: نعم لقد وصلت.

قالت: هل يمكنني سماع رأيك الآن؟

قلت: سيصلك الرد عبر البريد.

واعتذرت لها بانشغالي الشديد، وكنت وقتها

منشغلاً، كما أني لم أكن متذكرًا تفاصيل الرسالة.

بعد مضي يومين أو ثلاثة على هذه المحادثة وجدت رسالة على الناسوخ (الفاكس) مذيلة باسم «أم همام القحطاني» وقد بدأت رسالتها بقولها:

لو استشرتُ حاخامًا يهوديًا أو قسًّا نصرانيًا في لون فستاني لأشار عليَّ بمباركة المسيح؛ ولكنني أستشير أحد دعاة المسلمين في أمرٍ مُهِمّ يَخُصُّ مستقبلي فلم يَرُدَّ عليَّ !

أعلم بأنني لست شابًّا تُعَلَّق عليه الآمال الكبيرة ولست.. ولست..

ثم قالت:

لكنني امرأةٌ أؤمن بدينِ نَبِيٍّ كانت الجارية تأخذ بيده ﷺ حيث شاءت، فيقضي لها ﷺ حاجتها.

وختمت رسالتها بعبارة ساخرة قائلة:

أتمنى لك مزيدًا من التفرُّغ لإنجاز أبحاثك ومشاريعك!

كان الموقف صادمًا، وشعرت لأول وهلة بالضيق من لومها وعتابها، وانزعجت جدًّا؛ فالبشر بطبيعتهم لا يحبُّون أن يتوَجَّه إليهم أحدٌ باللوم القاسي، وهمَمْت أن أصرِّح لها باستيائي من رسالتها تلك، وبإمكاني وقتها أن أقول وأنا صادق: إن مشكلتك ذات أهمية، لكن أمامي الإعداد لمحاضرة يحضرها العشرات، ويسمعها مسجَّلة مئات؛ فهم أولى بالوقت، وحين أنجز مهمتي هذه يمكنني الردّ على رسالتك، ورسائل العشرات الذين ينتظرون، لكنني توقفتُ وقرَّرت ألا أستعجل بالرد.

عدتُ لمراجعة الردود على الرسائل، فوجدت أنني قد كتبت الردّ على رسالتها، والتي كانت تستشيرني فيها حول رغبتها في تغيير التخصُّص؛ لأنها التحقتْ بقسمٍ في الجامعة لم تَرْتَح لنوعيَّة الطالبات فيه، وهي في صراع مع نفسها بين أن تستمرَّ في هذا القسم ليكون لها دور إيجابي أم تُغَيِّر التخصُّص؟

فأرسلت الردَّ الذي سبق وأعددته لها مرفقًا

باعتذار عميق، ولم يَصلني منها ردٌّ، وأعترف أني أستحقّ هذا التجاهل لو كان متعمَّدًا منها.

ولم أكن وقتها أعرف رقم الناسوخ الخاصّ بها لأرسل الردَّ عليه، وحتى الآن وبعد مضي أكثر من عشرين سنة على هذا الموقف مازلت أتذكرها، والمؤسف هو أنني لا أدري هل وصلتها رسالتي أم لا، ولا أدري ماذا حصل بشأنها؟

في حالات كثيرة ننظر إلى مشكلات الآخرين من زاويتنا الخاصة لا من زاويتهم، وهذا يقودنا إلى عدم إعطاء هذه المشكلات الاهتمام اللازم الذي يَليق بها، بل ربما بَدَرَتْ منا تعليقات قاسية تستخفُّ بشأن هذه المشكلات.

وهذا كله ناشئ عن عجزنا عن وضع أنفسنا مكانهم، ولو أننا عدنا إلى الحديث النبوي الذي استشهدت به «أم همام» وهو ثابت في السنة العمليَّة للنبي ﷺ لاكتشفنا المانع الزائف الذي يحُول بيننا وبين الاقتراب من مشكلات الناس؛ فعن أنس -رضي الله عنه-، أن امرأة كان في عقلها شيء،

فقالت: يا رسول الله! إنَّ لي إليك حاجةً، فقال: «يا أم فلان انظري أي السكك شئتِ، حتى أقضي لك حاجتك» فخلا معها[1] في بعض الطُّرُق، حتى فرغت من حاجتها» [أخرجه مسلم: ٢٣٢٦].

وفي رواية لأحمد (١١٩٤١): «إن كانت الأَمَةُ مِن أهل المدينة لتأخُذَ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به في حاجتها».

والأغلب أنَّ ما تتحدَّث به الأَمَةُ، أو تلك التي في عقلها شيءٌ مع رسول الله ﷺ لن يكون متَّصلاً بالشأن العام للأمة، أو متعلِّقًا بمصلحة عليا من مصالح المسلمين.

ولو أنني استحضرتُ هذا المنهج النبوي لما وقعت

---

(١) قال النووي: «قوله (خلا معها في بعض الطرق) أي: وقف معها في طريق مسلوك ليقضي حاجتها ويفتيها في الخلوة، ولم يكن ذلك من الخلوة بالأجنبية؛ فإن هذا كان في مَمَرّ الناس ومشاهدتهم إياه وإياها، لكن لا يسمعون كلامها؛ لأن مسألتها مما لا يظهره والله أعلم» (شرح صحيح مسلم ١٥/ ٨٣).

في ذلك الخطأ، ولاستفهمت صاحبة الاستشارة حين اتصلت بي عن طبيعة مشكلتها، أو طلبت منها معاودة الاتصال بعد رجوعي لرسالتها، وأحسب أن ذلك كله سيأخذ وقتًا أقل من الوقت الذي سأقضيه في كتابة ردّ على رسالة وتغليفها، وإيصالها لمكتب البريد.

هذا لونٌ من الأخطاء المؤثِّرة، وقد تعلمتُ منه:

أن أراعي التباين في اهتمامات الناس وعقولهم وقدراتهم ونوعية مشكلاتهم، ويتجلَّى هذا عند تعاملنا مع المرأة والطفل؛ فالطفل حين يطلب منا ما يرى أهميته، قد ننساه أو لا نعبأ به، أو نراه هامشيًّا لأننا لم نضع أنفسنا مكانه.

والأمر ذاته مع المرأة، والتي تختلف اهتماماتها عن الرجل المنشغل بقضايا يحسب أنها قضايا كبرى، لا سيما إن كان من العاملين في وسط علمي أو دَعَوي؛ وحين تطلب منه زوجته شيئًا يخصُّ المنزل كإصلاح شيء تلف، أو شراء جهاز، أو إيصالها إلى مكان ما؛ فإنه يقيس طلبها بمقياسه الخاص فيراه غير

مهم؛ فيتوانى عن تلبية طلباتها التي هي مهمة لديها وليست مهمة لديه!

اجتهدتُ بعدها عند تعاملي مع مشكلات الآخرين وأسئلتهم ومشروعاتهم وتطلعاتهم، أن أضع نفسي مكانهم لأتفهَّم مواقفهم وأتعامل معها بما يليق، وأنظر إليها من زاويتهم وليس من زاويتي الخاصة.

والأمر ليس قاصرًا على مشكلات الناس ومطالبهم الشخصيَّة؛ ففي إطار الأفكار والمشروعات الدعويَّة والخيريَّة والاجتماعيَّة يتواصل معنا الآخرون يطلبون رأيًا ومشورة، ويعلِّقون على مشروعاتهم وأفكارهم آمالاً وطموحات عالية.

وكثيرٌ من تلك المشروعات قد لا تُمثِّل -من وجهة نظرنا- أهمية عالية، وقد نراها -خلافًا لرأي أصحابها- أقل من أن يُنْشَغل بها، لكننا لا نستوعب المسافة بيننا وبين الآخرين، فربما هوَّنا من شأنها، معتذرين عن مشاركتنا إياهم الرأي أو العمل؛ لانشغالنا بما هو أهمّ.

وأحسب أننا بحاجة إلى قَدْر من المصارحة مع الناس، وأن نَعِي أن المستشار مؤتمن، لكن ذلك لا يعفينا من حسن التعامل مع الموقف وتقدير اهتمامات الآخرين.

ومن المهم الوعي بأن اهتمامات الناس لا تنفصل عن تفكيرهم وقدراتهم، فما نراه قليل الجدوى، وليس ذا أهمية بالنسبة لنا، قد يكون هو أولى ما ينشغل به غيرنا بالنظر لقدراته، وإمكاناته.

وقد خلَق الله -عز وجل- الناس متفاوتين مختلفين في قُدراتهم، وتفكيرهم، واتجاهاتهم، فضلاً عن مستوى التعلُّم والحال الدنيويَّة، وله في ذلك حكمة بالغة كما قال -سبحانه-: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [الأنعام:١٦٥].

لقد كانت العناية بتنظيف المسجد من خير ما تقوم به تلك المرأة التي اعتنى ﷺ بشأنها، وسأل عن قبرها؛ ليصلِّي عليها؛ فعن أبي هريرة -رضي

الله عنه-، أنَّ امرأة سوداء كانت تَقُمُّ المسجدَ - أو شابًّا - ففقدها رسول الله ﷺ، فسأل عنها - أو عنه - فقالوا: مات، قال: «أفلا كنتم آذنتموني»؟ قال: فكأنهم صغَّرُوا أمرها - أو أمره - فقال: «دُلُّونِي على قبرها» فَدَلُّوه، فصلَّى عليها، ثم قال: «إنَّ هذه القبور مملوءة ظلمة على أهلها، وإن الله -عز وجل- يُنَوِّرها لهم بصلاتي عليهم» [أخرجه البخاري ٤٥٨، ومسلم ٩٥٦ واللفظ لمسلم].

ولو انشغل مثل أبي بكر، أو خالد بن الوليد، أو ابن عباس -رضي الله عنهم- بمثل عملها لكانوا منشغلين بالمفضول عن الفاضل.

كما أننا بحاجة إلى أن نَعِي قصور قدرتنا على الارتقاء باهتمامات الآخرين، فضلاً عن أن كثيرًا مما نريده منهم فوق طاقتهم، ولم يُهيَّؤُوا له.

ومما يُعين على تحقيق هذا المعنى: الفصل بين قُدُرَات الناس والمنزلة عند الله -عز وجل-؛ فالمنزلة عند الله -عز وجل- أمرُها إليه -سبحانه-، وهي لا ترتبط بالقدرات والمواهب، إنما مردها

إلى التقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:١٣].

فَرُبَّ رجلٍ أو امرأةٍ من عامة الناس، ضعيف القُدُرَات، قليل المواهب، هو أفضل عند الله مِن بعض مَن يُشَار لهم بالبنان علمًا وفكرًا وخبرةً؛ فعن أبي هريرة -رضي الله عنه-، أن رسول الله ﷺ، قال: «رُبَّ أشعث، مدفوعٍ بالأبواب لو أقسَم على الله لأبرَّه» [أخرجه مسلم ٢٦٢٢].

مع المشرف التربوي

في أولى سنوات تدريسي للقرآن الكريم للمرحلة الثانوية في المعهد العلمي، فُوجِئْتُ بضعف مستوى الطلاب في التلاوة فضلاً عن الحفظ، وأمْر الحفظ كان أيسر من وجهة نظري؛ إذ يمكن إلزام الطلاب بذلك ومتابعتهم، أما تحسين مستوى التلاوة وتصحيح التجويد فلا يكفي معهما مجرد بذل جهود سريعة؛ بل يحتاج إلى جهد كبير ووقت طويل حتى يُتقن الطلاب التلاوة.

ولم تكن مشكلة أولئك الطلاب منحصرةً في التلاوة أو قواعد التجويد الأساسية فحسب؛ بل هي نوعٌ من اللَّحن الجَلِيّ في التلاوة، وهو كما يُعرِّفه علماء التجويد: خطأٌ يطرأ على الألفاظ فيُخِلُّ بعُرْفِ القراءة سواء أخَلَّ بالمعنى أم لا، كتغيير حرف بحرفٍ أو حركة بحركة، بل كان الضعف يصل

ببعضهم لدرجة العجز عن قراءة الكلمة الواحدة من كتاب الله تعالى بشكل صحيح!

وبعد مُضِيّ شهر على بداية العام الدراسي زار المعهدَ مشرفٌ تربويٌّ، فحرصت على أن أعطيه صورة واضحة عن واقع الطلاب؛ لأني أعرف قُرْبَه من موقع اتخاذ القرار؛ لذا اخترت للقراءة حينها أسوأ الطلاب لديّ وأضعفهم؛ فتلقَّى المشرف الأمر بانزعاج شديد.

وبعد انتهاء الدرس جلس معي وحدَّثني عن ضعف مستوى طلابي في القرآن الكريم، مطالبًا إيَّايَ ببذل مزيد من الجهد لمعالجة هذا الضعف.

قلت له: يا أستاذي الفاضل! إنَّ هؤلاء الطلاب قد درسوا ثلاث سنوات في هذا المعهد قبل أن آتي إليه، وكانوا يتلقون خلالها ثلاث حصص أسبوعيَّة في القرآن الكريم، وأنا لم أدرِّسهم إلا شهرًا واحدًا، فلا يمكن أن أعالج هذا الضعف المتراكم خلال هذه المدة القصيرة؛ فالمسؤول الحقيقي عن تدنِّي مستواهم هو مَن قام بتدريسهم قبلي وليس أنا.

العجيب أن المشرف لم يقبل مني ذلك العذر والتبرير، وكتب لي قائمة من الملحوظات في السجل الرسميّ الخاص بذلك.

وقد انسحب تقويمه لي في مادة القرآن الكريم على عدد من الدروس والمقرَّرات والمواد الأخرى التي أشرفَ على أدائي فيها؛ إذ تكونت لديه صورة غير جيِّدة عنِّي، ولم تُمْحَ من ذهنه إلا بعد زيارات تالية متعدِّدة، وتواصل واشتراك لنا في بعض اللجان.

في مرحلة الشباب يغلب على الشخص التفكير المثالي، وهذا ما جعلني أعتقد بأن المشرف سيفكِّر كما كنت أفكر، وسينظر للموقف من الزاوية التي نظرت إليه من خلالها، لذا تعاملت مع الموقف بقَدْرٍ من المثالية، لا سيَّما أني كنت حديث عهد بالتدريس.

وأما المشرف فقد اعتاد من المعلمين عند زيارته لهم؛ أن يختاروا له أفضل الطلاب للقراءة أمامه، والعادل منهم قد يوزع القراءة على عددٍ من الطلاب متفاوتي المستوى.

وقد أدركت بعدها أنه كان عليَّ فعل ذلك، لكي يرى تباين مستويات الطلاب؛ إذ ليسوا جميعًا بذلك السوء الذي ظهر به الطالب الذي اخترته للقراءة أمامه !

وقد تعلمت من هذا الموقف: أهمية فهم الكيفية التي يفكِّر بها الآخرون، وهذا لا يعني أن نُجاريهم في مواقفهم، إنما المقصود هو أن نفهم تفكيرهم ونتعامل معهم في ضوء ذلك.

وتعلمت أن: أشرح وجهة نظري بواقعيَّة والتزام بالمسؤوليَّة، ولو عاد بي الزمن للوراء فسوف أختار عددًا من الطلاب متوسطي المستوى أو سوف أُنَوِّع في الاختيار، ثم بعدها سأتحدث مع المشرف التربوي مبيِّنًا له بأن هذه هي السنة الأولى لي في تدريس القرآن الكريم، وبعد ذلك سأسرد عليه ملاحظاتي موحيًا له بأن معالجة جوانب الضعف والقصور التي رآها هي مسؤوليتنا جميعًا (معلمين ومشرفين وإدارات ومناهج)، وأن علينا جميعًا الاعتناء بهذا الأمر خاصة مع طلاب المعاهد العلمية، وأحسب أني

لو كنت سلكت هذا المسلك مع المشرف التربوي حينها منذ البداية؛ فسوف أنجح في إقناعه، وسوف أتجنَّب التقويم السلبي لي من جانبه.

وتعلمت أيضًا: التنبُّه إلى أننا نتعامل مع فئات مختلفة؛ فهم مختلفون في تديُّنهم وفكرهم ورؤيتهم للحياة[1]، ويتفاوتون في جوانب شتَّى.

ولذا فعلينا عند التعامل معهم مراعاة المستوى الفردي، فعندما نتحدث حديثًا عامًّا لا بدَّ أن نَضَع نُصْبَ أعيننا أن هؤلاء ينظرون للواقع من زوايا مختلفة عن تلك الزاوية التي ننظر منها.

إن هذا الوعي سوف يجعلنا قادرين على قول ما عندنا بطريقة مناسبة، تُوصل للآخر ما نريد دون اصطدام.

وتعلمت أن الانطباع العملي (إيجابًا أو سلبًا) أبلغ بكثير من المقالة اللفظيَّة؛ فأثر زيارة مشروع متميز،

(١) لا أعني بذلك أستاذي الفاضل؛ فقد كان نموذجًا في الديانة، والخُلُق، ورعاية المسؤولية.

أو موقع جميل أخَّاذ لا يمكن أن يعدلها الوصف والحديث البليغ عنه.

وهكذا من الصعب جدًّا أن ينقل الشخص للآخرين أثر معايشته لموقف إيجابي، أو سلبي مهما أُوتِيَ من الفصاحة والبلاغة؛ فليس المُخْبَر كالمُعَايِن.

وفي الحديث عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الخبر كالمعاينة، إن الله -عز وجل- أخبر موسى بما صنع قومه في العجل، فلم يُلْقِ الألواح، فلما عايَن ما صنعوا، ألقى الألواح فانكسرت» [أخرجه أحمد ٢٤٤٧].

لذا فتوظيف هذا الأمر مُهِمّ في التعريف بالمشروعات والتسويق لها، وفي إقناع الآخرين وتحفيزهم على التفاعل معها، أو التحذير من بعض ما ينبغي التحذير منه.

كما تعلمت أنه من الصعب أن يمحو الحديث انطباعًا تشكَّل من موقف عملي، وأن علينا أن نحذر مما يعطي انطباعًا غير إيجابي لدى الآخرين

عن أشخاصنا أو مشروعاتنا؛ فالشرح والتبرير لا يكفي، ولا يعيد الآخرين إلى المربع الأول.

ويبدو ذلك في العلاقات الاجتماعيَّة، والتواصل مع الآخرين، كما يبدو أيضًا في الخطاب الدعوي؛ فلن يُعيد الداعيةَ والمتحدِّثَ إلى المربع الأول اجتهادُه في توضيح مقصده، وشرح كلامه، ولوم الناس على أنهم لم يعذروه.

وبِغَضِّ النظر عن موقفنا من تفكير الآخرين؛ فنحن بحاجة إلى الوعي بطرق تفكيرهم وردود أفعالهم، والتعامل معهم في ضوئها.

وتعلمت أيضًا أهمية الصورة الأولى والانطباع الأولي؛ فهو كثيرًا ما يُنْسِي ما يأتي بعده، وتكوين الانطباع الأولي أسهل بكثير من تغيير الانطباع.

فاللقاء الأول بالآخرين له أهميته البالغة في تشكيل الانطباع عن مَن يتولَّى مسؤولية جديدة، وأول لقاء بالداعية وطالب العلم له أثَر خاصّ ومواقف قد لا تُنْسَى، وبداية الحديث يُشَكِّل انطباعًا لدى الناس يقودهم للمتابعة أو الانصراف.

مع معلِّمي القرآن الكريم

كان موضوع دراستي في مرحلة الماجستير عن «تقويم أداء معلِّم القرآن الكريم في منطقة الرياض».

وتطلَّبت الدراسة منِّي القيام بزيارات لكلِّ مُعلِّمي القرآن الكريم في المرحلة الابتدائية آنذاك، وكان عددهم قريبًا من تسعين مُعلِّمًا.

وبعد انتهائي من رسالة الماجستير ومناقشتها تلقيت دعوة من إدارة التوعية الإسلامية في منطقة الرياض، وذلك للمشاركة في لقاء نُظِّمَ لمديري مدارس تحفيظ القرآن الكريم، وكان الهدف من دعوتي لهذا اللقاء هو عَرْض أبرز نتائج دراستي تلك على مديري المدارس باعتبار أنها تخصُّهم وتَعْنِيهم.

حضرت اللقاء والقَلَق يساورني من عدم تقبُّلهم لبعض نتائج الدراسة؛ باعتبار أن طبيعة البحث

العلمي تختلف عما قد يلاحظه مدير المدرسة من خلال تعامله مع معلِّمي القرآن الكريم؛ حيث إن غالبيتهم يركِّزون على انضباط المعلم ومستوى حفظه، ومستوى حفظ الطلاب، وما إلى ذلك.

بينما طبيعة الدراسة العلمية تقتضي تحديدًا تفصيليًّا لأداء معلِّم القرآن الكريم، وتُركِّز على المهارات التي ينبغي أن يمتلكها ويؤدِّيها بإتقان؛ فالدراسة تهدف إلى تقويم مدى تحقُّق كل ذلك لدى المعلِّم.

لكنني حينما عرضت نتائج الدراسة عليهم فوجئت بتفاعل جيِّد مِن قِبَلهم مع تلك النتائج، ووجدت منهم تقبُّلاً لها، ولربما أن هذا منسجم مع دور المدير باعتباره مشرفًا مقيمًا.

بعد ذلك عَرَض عليَّ مدير إحدى المدارس -والتي كان يدرس فيها بعض أبنائي- أن يجمع لي معلِّمي القرآن الكريم في مدرسته؛ لكي أعرض عليهم نتائج دراستي، فقبلت عرضه، وذهبت إلى

ذلك اللقاء متحمِّسًا مزهوًّا بالانطباع الجميل الذي وجدته في اجتماعي مع مديري المدارس.

وعرضت على المعلمين نتائج الدراسة كما عرضتها على مديري المدارس، مع مراعاة الإيجاز بما يتناسب مع الوقت المحدَّد للقاء.

فكانت النتيجة صادمة بصورة لم أتوقعها؛ إذ لم أستحضر أن هؤلاء المعلمين مَعْنِيُّونَ بنتائج الدراسة بدرجة أولى؛ لأن نتائج الدارسة تَصِف أداءهم، وأما المديرون الذين تلقوا النتائج بصورة مختلفة فلأنها لا تَصِف أداءهم، فالموقفان مختلفان بالكلية !

ومع أن نتائج الدارسة لا تقرِّر أن أداء المعلمين في مدارسهم كان سيئًا؛ لكن طبيعة الدراسة اقتضت إبراز جوانب القصور كما أبرزت جوانب التميُّز.

وقد تضمَّنت بطاقة الملاحظة الخاصة ببحث الدراسة عبارات عديدة تصل إلى ستين عبارة، وقد أُعطيت كل عبارة نفس وزن العبارة الأخرى، وهذا ليس مقصودًا في البحث العلمي؛ حيث إن

هناك بعض العبارات تُمَثِّل وزنًا كبيرًا، ويتم التعامل معها في الدارسة من خلال النِّسَب المئوية.

بمعنى: كم هي العبارات التي تحقَّقت بدرجة عالية؟

وكم هي العبارات التي تحقَّقت بدرجة متوسطة؟

وكم هي العبارات التي تحقَّقت بدرجة ضعيفة؟

ولا شكَّ أنَّ هناك عبارات عديدة لم تتحقَّق لدى المعلمين، أو تحقَّقت لكن بدرجة ضعيفة؛ فحينما نقول مثلاً: (إن ثلثي العبارات تحقَّقت بدرجة ضعيفة)؛ فهذا لا يعني أن أداء المعلم لا يساوي إلا الثلث.

والحاصل أنني واجهت ردَّة فِعْلٍ قويَّة، ووجَّه لي المعلمون في ذلك اللقاء انتقادًا حادًّا حتى إن أحدهم قال: كيف لإنسان أن يُصْدِر تقييمًا مُنْصِفًا وهو يجلس على مكتبه يكتب ويتحدث بعيدًا عن الميدان؟!

فابتسمت وقلت: أنتم تعلمون بأنني لم أكتب هذه الدراسة في مكتبي، وإنما نزلت إلى الميدان، وزرت كل معلِّمي القرآن الكريم في منطقة الرياض.

ثم اجتهدتُ في تلطيف أجواء اللقاء الساخنة، لكن لا يمكن أن تعود الأمور إلى نقطة البداية.

يتعامل الناس بحيادٍ مع كثير من الموضوعات حينما لا تَعنيهم، ويكونون على استعداد تامّ لتقبُّل أيّ نتائج مِن مختصٍّ أو باحثٍ عندما لا يمسّهم الموضوع؛ ولكن عندما تتَّصل هذه النتائج بهم؛ فالغالب أنهم لا يتقبَّلُون بسهولةٍ ما لا يتفق مع ما لديهم من معلومات أو تصوُّرات مسبقة.

فحين نتحدَّث -على سبيل المثال- عن طبيعة المرأة أمام النساء، أو عن طبيعة المراهقين أمام المراهقين، أو عن طبيعة كبار السن أمام كبار السن؛ فإن كثيرًا منهم لن يتقبّلوا ما نقدِّمه من نَقْدٍ لهم، حتى ولو كان صحيحًا ومثبتًا بالبحث العلمي.

ولو عاد بي الزمن مرة أخرى فسوف أتجاهل

بعض نتائج الدراسة التي لا تُمَثِّل قيمةً كبيرة، ولن أخوض في التفاصيل التي عَرَضْتُها على المديرين، وسوف أقول للمعلمين في بداية اللقاء:

إن ما سأعرضه عليكم يُمَثِّل معدَّل ما توصلت إليه في دراستي من خلال زياراتي لكافة معلِّمي القرآن الكريم في منطقة الرياض والذين يبلغ عددهم تسعون معلمًا، مما يعني بالتأكيد أن هذه النتائج بتفصيلاتها لا تنطبق على كلِّ معلم؛ بل لا يُتصور إمكانية ذلك.

ثم سأعرض عليهم النتائج التي تبرز جوانب التميُّز في أدائهم -وهي كثيرة-؛ حيث كان من جوانب التميز -على سبيل المثال لا الحصر- إتقان المعلمين لحفظ القرآن الكريم، وإتقانهم للأداء؛ حيث لم أجد لدى أحد منهم لحنًا جليًّا، بل معظمهم متقنون في تطبيق قواعد التجويد، كما لمست لدى معظمهم حُسْن تعاملهم مع الطلاب.

وكل هذه الجوانب رئيسة، ولو أنني أشرت إليها

عند بدء حديثي معهم وأشدت بها، ثم تناولت بعد ذلك جوانب القصور فربما تقبَّلوا الأمر، وتحقَّق الهدف الذي كنت أصبو إليه.

لقد آلمتني جدًّا ردَّة فعل المعلمين تلك، لا سيما أن كثيرًا من الحاضرين كانوا أساتذة لأولادي وعدد منهم كان من طلابي، باعتبار أن تلك المدرسة قريبة من الحي الذي كنت أسكن فيه.

لكنني تعلمت من ذلك الموقف أن بعض الأخطاء ثمن لتعلُّم وترسُّخ أمور مهمة، لربما نسي المعلمون ذلك الموقف، أو بقي في ذاكرتهم في ظلّ باهت، أما أنا فتعلمتُ منه ما لا أنساه.

وتعلمت أيضًا أنه من المهم جدًّا أن نتوقَّع ردة فعل الناس، وبالأخص فيما يمسّهم شخصيًّا، أو يتصادم مع اقتناعهم، وهذا لا يعني إخفاء الحقائق، لكنَّ المقصود هو اختيار أنسب الطرق وألطف العبارات عند عرضها عليهم.

وقد راعى ﷺ هذا المعنى، فحين قال عبدالله

بن أبي: والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، قال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، قال النبي ﷺ: «**دعه؛ لا يتحدَّث الناسُ أنَّ محمدًا يَقتل أصحابه**» [أخرجه البخاري ٤٩٠٧، ومسلم ٢٥٨٤].

وترك ﷺ إعادة بناء الكعبة على قواعد إبراهيم مراعاةً لحال الناس؛ فعن عائشة -رضي الله عنها: أنَّ رسول الله ﷺ قال لها: «**ألم تري أن قومك لما بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم؟**»، فقلت: يا رسول الله، ألا تردّها على قواعد إبراهيم؟ قال: «لَوْلَا حِدْثَانُ قَوْمِكِ بِالْكُفْرِ لفَعَلْتُ» [أخرجه البخاري ١٥٨٣، ومسلم ١٣٣٣].

ودلالة هذه النصوص والمواقف النبويَّة تتَّسع لتشملَ اعتبار ردود فعل الناس، وعدم تجاهلها، ولا يعني ذلك أن تكون وحدها هي الموجِّه.

وتعلمت كذلك أن كثيرًا من التفاصيل قد لا تكون ذات جدوى، ولا داعي للحديث عنها أمام

الناس، فربما أدَّت إلى النفور، أو رَفْض الحق الذي نريد تقديمه لهم.

يتحدَّث خطيبٌ أو داعيةٌ عن ظاهرةٍ ما؛ فيورد حدثًا شاذًّا، أو موقفًا يتَّسم بالغرابة، أو أثرًا أو قصَّةً عن بعض السلف فينشغل الناس بهذه التفاصيل الشاذَّة عن جوهر حديثه، ويصدُّهم استنكارها عن رؤية جمال ما سمعوه.

وفي الإصلاح الاجتماعي، والحوار بين المتخاصمين، أو مَن يسعى للإصلاح هناك تفاصيل شاذَّة، ليست ذا شأن بالغ، لكنها تؤذي السامع، وتصرِف الحوار إلى جدل حول التفاصيل بدلاً من جوهر الموضوع.

وفي النقد العلمي والفكري كثيرًا ما يَصرِف تتبُّع الشواذ الصغيرة عن جوهر النقد الحقيقي، وعن العناية بالجوهر أكثر من العَرَض.

وفي العلاقة الأُسَرِيَّة، وعلاقات العمل بين المدير ومرؤوسيه، والزملاء والشركاء، من الأولى أن

ننصرف عما لا قيمة له من التفاصيل، وأن ننشغل بالأولى والأهم.

وتعلمت أيضًا حساسية الناس فيما يتعلَّق بهم، وصعوبة تحلِّيهم بالموضوعيَّة؛ فالموظف يلجأ للدفاع والتبرير حين يُناقَش في تقصيره وربما كان جادًّا في ذلك لا مكابرًا، ومثله الطالب حين يُنتقَد في عمله، فضلاً عن انتقاد الأدنى للأعلى.

إنَّ من مخالفة الطبيعة البشريَّة مطالبة الناس بالموضوعيَّة العالية فيما يتصل بهم ويمسّهم شخصيًّا.

وهذا يدعونا إلى البحث عن المدخل المناسب حين نتحدَّث مع الآخرين فيما يمسّهم ويتَّصل بهم.

كما أن ذلك يدعونا في الوقت نفسه إلى أن نجاهد أنفسنا، ونسعى للتجرُّد حين توجَّه لنا النصيحة، وأن نَعِي أن الاعتذار لا يعجز عنه أحدٌ.

وتعلمت أيضًا: أن أراجع نفسي وأبدأ بها حين أرى نفور الآخرين؛ فعندما لا يتقبَّل النَّاس ما نقوله

لهم، وحين يعترضون على سلوكنا وتعاملنا، كثيرًا ما نَقْفز إلى الحديث عنهم، وضَعْف صبرهم وتحمُّلهم، أو قلة الديانة لدى بعضهم، أو اتِّباع الهوى، والبحث عن الدَّعَة، أو أنهم لا يحبُّون إلا مَن يتركهم على ما يهوون.

ولا شكَّ أن الناس لا يسلمون من شيء من ذلك، لكنَّ هذا لا يعني بالضرورة تحميلهم المسؤوليَّة في كلِّ موقف، وحين يكون موقفهم الرافض أو المنتقد عامًّا لا شاذًّا؛ فالأقرب أن الخطأ منا نحن.

وصدقُ نيتنا، أو تضمن حديثنا وتعليمنا قدرًا من الصواب، لا يعني سلامةَ موقفنا كله، فالمواقف فيها نِسبيَّة عالية، ولا يمكن حَصْرها في الصواب المحض، والخطأ المحض.

التصريح بما لا ينبغي التصريح به

تتفاوت المواقف التي مررتُ بها، وتعلمتُ من أخطائي فيها ما بين مواقف خاصَّة محدودة الأثر ومواقف عامَّة ذات آثار أوسع.

من المواقف العامة والتي تلقيت منها درسًا أفادني كثيرًا في مسيرتي الدعوية موقف حدث لي في خِضَمّ تعالي الأصوات اللاذعة، والهجوم مِن قِبَل وسائل الإعلام على هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تحدثتُ في درسي الأسبوعي عن هذا الموضوع، وأشرتُ - دون ذكر أسماء - إلى أن أحد الذين كتبوا مقالة تهاجم هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأجرى تحقيقًا مسيئًا عنها؛ كان ممن سبق أن قبضت عليه الهيئة متلبِّسًا بقضية لا أخلاقية!

وعلَّقت بقولي: إن موقفه من الهيئة لا يتَّسم

بالموضوعيَّة والحياد؛ بل هو لونٌ من الانتقام، ونوعٌ من ردة الفعل!

كان حديثي بناء على معلومة وصلتني من مصدرٍ أثق به.

وكان بين الحضور شابٌ على صلة بأحد طلابي، ولم يكن من رُوَّاد الدرس، فاستفزه حديثي وأثار حفيظته، فانتظرني حتى انتهيت من الدرس، وقابلني بصحبة ذلك الطالب وسألني بنبرة انفعال عن اسم الشخص المقصود بالحديث.

بدا لي منفعلاً بطريقة أثارت عجبي، وشعرت كأنه يريد نفي التهمة عن شخصيَّة معيَّنة علقت بذهنه!

رفضت ذكر اسم الشخص، وأن الأمر حديث عن ظاهرة لا عن أشخاص؛ فألحَّ تلميذي عليَّ وكرَّر سؤال صاحبه بنبرةٍ تُوحِي بأنني لا أقصد الشخص الذي علق بذهن صاحبه.

انهالا عليَّ بالأسئلة: ما اسم الشخص؟ في أيِّ صحيفة؟

لكني تمسكت بموقفي واعتذرت لهما قائلاً:

أنا غير مَعْنِيّ بالصحيفة، ولا باسم الشخص الذي كتب، ولا أرمي بحديثي للتشهير بأحد، وكل ما أردته بحديثي هو تسليط الضوء على قضية الانتصار للنفس والانتقام لها، وأنه يجب عدم توظيف منبر الصحافة لتصفية الحسابات والانتقام الشخصي.

أصرَّ تلميذي وألحَّ عليَّ أن أخبرهما باسم الصحيفة أو الصحفي الذي قصدته -وكنت أتمنى ألا يُلِحَّ تلميذي عليَّ، وألا يقفَ هذا الموقف- ومع إصراره ذكرتُ اسم الصحيفة.

وكان الشخص الذي يَهُمّ صاحب تلميذي هو المقصود؛ فما كان منه إلا أن انفعل وتضايق كثيرًا، وأحسَّ بالاستفزاز، وكأنما حديثي يعنيه شخصيًا.

ووجدت نفسي مجبرًا على احتواء الموقف، وعملت على تهدئته، والتشعُّب بالحديث حتى امتصصت غضبه، هدأ الرجل أخيرًا حين اقتنع بأنه ليس لديَّ أيّ دافع شخصيّ ضد الصحيفة أو الصحفي كاتب المقال.

وبدأ يحدِّثني طويلاً عن المواقف والتصريحات الاستفزازية، وما تخلِّفه من آثار سلبيَّة، وتطرَّق في كلامه عن الأحداث التي جرت في الأردن أيام الملك الحسين بن طلال، وسُمِّيَتْ بـ«أيلول الأسود»، وما سبَّبته من مصائب للأشقاء الفلسطينيين، وكيف أنهم بممارستهم حينذاك لسلوكيَّات معينة استثاروا المجتمع ضدَّهم، وهيَّئوا الأجواء لاتخاذ قرارات لم تكن في صالحهم!

ثم ختم حديثه بقوله:

أتمنى من المحتسبين ألا يُستدرجوا لمثل هذه المواقف المثيرة للنزاع.

افترقنا بسلام، وانتهى الموقف على خير؛ لكنه

خلَّف في نفسي حسرةً، فقد شعرت بأنني ارتكبت خطأً من النوع الذي له تبعاته!

قد نكون في أوقات عديدة متأكدين وبصفة شخصية من معلومة ما؛ لكن هذا لا يُسوِّغ لنا أن نُصرِّح بها، ونحن غير قادرين على إثباتها إن حدث نزاع وطُولبنا بإثبات ما صرَّحنا به، واللغة تتَّسع لبدائل عالية يمكن أن نوصِّل رسالتنا من خلالها دون أن نلجأ إلى التصريح بما لا يسوغ التصريح به.

إن بعض التصريحات تكون ككرة الثلج، تبدأ صغيرة ثم تكبر وتتعاظم، حتى تتحوَّل إلى قوَّة هدَّامة !

لقد مَرَّ الموقف السابق بسلام، لكنني تعلمت ألا أصرح بمعلومة أُطَالَب بإثباتها فلا أستطيع؛ فينحرف الموقف باتجاهٍ ليس في مصلحتي، رغم حُسْن نيتي في التصريح بها، لكن الحياة علمتني بأن النوايا الحسنة ليست دومًا قوارب نجاة.

وتعلمت ألا أتحدث عن جهات أو عن أشخاص

ولو تلميحًا؛ إذ لا مصلحة للداعية والمحتسب من تناول الجهات والشخصيات.

إن ذلك يُحوِّل الموقف من دائرة الاحتساب والنصح إلى معارك وصراع شخصي؛ إذ يبدأ المتحدِّث محتسبًا ساعيًا للإصلاح، دافعه خير المجتمع، ثم ما يلبث أن ينزلق في هُوَّة الجدل واللجج، وينحصر في زاوية الانتصار لنفسه فيضيع عليه أجر الاحتساب، وينشغل بمعارك هامشيَّة تُفْقِد عمله الفضيلة والإخلاص.

كثيرًا ما رأينا في الساحة الدعوية أن الحديث يبدأ عن الأشخاص والكيانات؛ فيفتتح المتحدِّث كلامه بنقدٍ موضوعيّ، ثم ينهمك في النقد حتى ينجرف إلى ساحة الجدل والنقاش؛ فيبرز الجانب الشخصيّ، ويسيطر على الموقف، وتتوارى الموضوعيَّة، ويصبح البحثُ عن الأخطاء والتفتيش عنها هاجسَ هذا النوع -ممن شُغِلُوا بالأشخاص والكيانات واعتنوا بالرد عليهم-، وحين يحتمل الموقف أكثر من تفسير

يميل المنتقد إلى التفسير السلبيّ الذي يتَّفق مع خلفيّته وأحكامه المسبَقة تجاه الشخص أو الكيان، وهذا يُفقِدنا الموضوعيَّة ويسلبنا فضيلة العدل.

قال البشير الإبراهيمي: «ومهما كان الخلاف جوهريًّا، فإذا لزم النقد، فلا يكون الباعث عليه الحقد، وليكن موجَّهًا إلى الآراء بالتمحيص، لا إلى الأشخاص بالتنقيص». [آثار البشير الإبراهيمي ٣/ ٦٧].

وتعلمت أهمية الاعتناء باختيار الألفاظ عند الحديث عن موضوع ذي حساسية، زميلٌ فاضل كان يُنبِّه وَليّ أمرِ أحد الطَّلاب على بعض ما رآه على ابنه؛ فتحدَّث معه بعفوية مستخدمًا ألفاظًا غير مناسبة، فتقدَّم وليُّ أمر الطالب بشكوى لإدارة المدرسة متَّهمًا إياه بتشويه سمعة ابنه، واحتاج صاحبي جهدًا للخروج من تَبِعَة الموقف.

وخطيب فاضل تحدَّث عن مؤسَّسَة تُقَام فيها أنشطةٌ تتضمَّن مخالفات شرعيَّة، فاستخدم ألفاظًا

غير مناسبة في الحديث عن تلك المؤسَّسَة، وصادف أن أحد أعضاء مجلس إدارتها كان من بين المصلين، فقام معلِّقًا بهدوء بعد الصلاة قائلاً: أنا فلان، وهذه صِلتي بالمؤسسة، وأمام الخطيب مدة أسبوع ليُثْبِتَ صحَّة تهمته.

وتعلمت أهمية التركيز على الهدف الذي أسعى إليه؛ وهو تصحيح الأفكار وتقويم السلوك؛ لذا فليكن مدار طرحي حول مناقشة الأفكار، وانتقاد الفكرة الخاطئة؛ فتصحيح الأفكار وتقويم السلوك أهمّ من مناقشة وانتقاد الجهات والأشخاص؛ فهؤلاء يتغيَّرون، وأما الأفكار فتبقَى، وتتَّسع دائرة تأثيرها مدى أوسع من اللحظة الوقتية.

وتعلمت من ذلك ضرورة الفصل بين الخطأ وأسلوب الحديث عنه، وبين الصواب وأسلوب الدعوة إليه؛ فيقيننا بالخطأ لا يُعْفِينا من الاجتهاد في البحث عن الطريق الأصوب في انتقاده، كما أن يقيننا بالصواب الذي ندعو إليه الناس لا يلزم منه

أننا سلكنا في ذلك الطريق الأصلح.

وتعلمت من ذلك أيضًا ضرورة ضبط النفس عند الغيرة؛ فبعض الأخيار يغضب ويشتد به الغضب حين يرى منكرًا، أو تعدٍّ على حدود الله -عز وجل-، والغضب لله حمية ممدوحة، لكنه لا يُسَوِّغ للناصح الاستسلام لمشاعره، والانطلاق في حديثه دون عدل أو حكمة؛ فالقاضي لا يَقضي وهو غضبان.

وكثيرًا ما برَّر بعض هؤلاء موقفهم بالغيرة والحمية للدين، والغيرة والحمية للدين حقٌّ بلا شكَّ، لكنها قد تُصحب بآفات.

فقد يُدَاخِلُها نوعٌ من الانتشاء وحبّ الانتصار، وقد تكون استجابةً لطبيعة بشريَّة غَضُوبَة، فصاحبها سريع الغضب والانفعال، لا يَضبط مشاعره؛ فينشغل بالنظر لحُسْن مقصده عن قصوره البشري في لَجْم غضبه، والتزام سبيل الحكمة.

ومن أحوج الناس أيضًا إلى ضبط مشاعره

والتحكم فيها المُعلِّم والمربِّي؛ فالخطأ من أولادنا وطلابنا قد يَستفزّنا؛ فنتصرَّف من وحي ردَّة الفعل، أكثر من التصرُّف المبني على اقتناعنا بجدوى عملنا وأثره التربوي.

المشورة غير الناضجة

في مستهلّ أحد أسفاري، وقبل أنْ أصعد إلى الطائرة اتَّصلت بي فتاة، وسألتني عن شخصٍ مُصَاب بمرضٍ نفسيٍّ، يتناول أدويةً نفسيَّةً؛ فهل يلزمه عندما يتقدَّم لخطبة فتاة أن يُخبر أهلها بحالته؛ باعتبار أن هذا عَيْب في شخصه؟

أجبتها: نعم، يلزمه أن يخبرهم إن كانوا يجهلون حالته..

فقالت لي: إنني متزوجة من شخص مصاب بمرضٍ نفسيّ، وقد استشارك قبل أن يتقدَّم لخطبتي هل يخبر أهلي عن حالته؟ فقلت له: لا يلزمك إخبارهم بذلك!

نزل كلامها كالصاعقة على رأسي، وأُصِبْتُ بذُهولٍ وصدمةٍ، ولم أدر بماذا أجيبها، وأنا مُقْدِم على سفر ولا وقت لديَّ للتفكير في ما قالته؛ فقلت لها:

لا أتذكر أنَّ هذا الأمر قد حدث؛ لأن رأيي في مثل هذا الموقف معروف وواضح، وأنا أَعُدُّ المرض النفسي عيبًا مؤثِّرًا؛ وكثير من الناس إن عرفوا به فلن يقبلوا بالمصاب زوجًا لابنتهم.

فصبَّت الفتاة على مسامعي سيلاً من عبارات اللوم، وحمَّلتني مسؤولية ما حدث لها، وأنهت المكالمة فجأة.

دارت بي الدنيا، وشعرت بألم شديد ومعاناة؛ إذ كيف لي أن أكون المتسبِّب في شقاء هذه الفتاة؟!

حاولت أن أتذكر هل حدث ذلك مني بالفعل؟

لم أتذكر شيئًا، لكنَّ ما أعرفه عن نفسي أنني أنسى كثيرًا، وعدم تذكُّري للموقف لا يعني بالضرورة أنه لم يحصل!

هذا نوع من الأخطاء التي لا يمكن تداركها، والاعتذار عنها ليس بذي قيمة تُذْكَر؛ فهو لا يخفِّف من آثار المشكلة؛ بل قد يزيدها في نفس صاحبها.

وقد ذكَّرني هذا بموقفٍ حدَث أمامي لشابٍ قليل الاتزان لا يضبط حركته؛ ففي إحدى المناسبات كان أخو المتزوج مرتديًا لباسًا يليق بعلاقته بصاحب المناسبة، وكان ذاك الشاب يكثر من الحركة فاصطدم بشخص يحمل أكوابًا من الشاي؛ فانسكبت جميعها على أخ المتزوج؛ فما كان منه إلا أن التفت له وقال له ببرود: آسف، ثم انصرف!

وقف أخو العروس مندهشًا، وقال: ما هذا؟ أهكذا وبكل بساطة يقول لي آسف وينصرف!

وأحسب أن موقفي مع هذه الفتاة ليس بأقل سوءًا من موقف هذا الشابّ، بل هو أشدّ؛ فغاية ما يحتاج إليه هو أن يُغَيِّر ملابسه التي تلطَّخت بالشاي؛ لكنني بهذه الاستشارة وهذا الرأي قد أكون تسبَّبْتُ بدمار أُسْرَة، وتدمير حياة الفتاة التي تزوَّج بها المريض النفسي، وهَبْ أنها نجحت في الطلاق منه فستكون فُرصتها في الزواج بعده أقل.

مرَّ الوقت عليَّ في الطائرة، وأنا أكابد آلام المشكلة

وأدافع القلق، وبمجرد أن نزلت من الطائرة بعثت للفتاة رسالة اعتذار، وأشرت فيها إلى أن اعتذاري عن هذا الموقف لا يكفي، وأكَّدت لها بأني لم أستطع تذكُّر أنني قدَّمت مثل هذا الرأي لأحدٍ؛ لكنْ إن كان قد صدَر مني شيء من هذا القبيل فهو ليس أكثر من وجهة نظر واجتهاد، بعثتُ لها بالرسالة لكنها لم تَرُدَّ عليها !

بطبيعتي لا أميل في الاستشارات إلى القرار الجريء، كأن أشير على أحد بطلاق زوجته، أو أشير على المرأة بطلب الطلاق إلا في حالات نادرة حين أرى ضرورةً تقتضي ذلك، مثل حالات الخيانة وما شابهها، وأحرص في أغلب الحالات على ألا أعطي رأيًا صارمًا، وهذا ليس من قبيل الغشّ لمن استشارني، لكنّ الرأي الصارم له تَبِعَاته؛ إنك حينما تنصح امرأة بالصبر على زوجها أو تنصح رجلاً بالصبر على زوجته؛ فالخطأ إن وُجِدَ في هذا الرأي فسيكون أهون من تبعات وقوع الطلاق.

وذات الشيء عندما يستشيرك شخص ما بترك وظيفته، أو في المضي في خطوة جديدة في حياته؛ فيجب عليك أن تتوقف كثيرًا قبل إعطائه رأيًا جريئًا قد يؤثِّر سلبًا في مسيرة حياته ومستقبله.

أَغَمَّنِي كثيرًا شأن هذه الفتاة، ولم يهدأ لي بال حتى اتصلت بي معتذرة، وقالت: لقد اكتشفت بأنَّ الأمر على خلاف ما ذكرته لك، وقد اعترف لي زوجي بأنك قلت له حين استشارك: لابد أن تُخبرهم بحالتك؛ ولكنه لم يعمل بمشورتك!

لقد أزاح عني كلامُها الهَمَّ وتنفَّسْتُ الصعداء، وقلت: حمدًا لله، إنَّ هذا ما أعرفه عن نفسي، وهذا هو رأيي في مثل هذا الأمر، ولم أَلُمْهَا في مقالي ولا في نفسي عن شيء قالته في حقي؛ إذ لو كان الأمر كما ظنَّتْ لكنتُ أستحقُّ أكثر مما قالت.

إنني لم أرتكب خطأ هنا، لكن هذا الموقف هزَّني كثيرًا، ووضعني أمام خطأ فادح قد يقع فيه البعض، وهو الاستهانةُ بأمر الاستشارة، وذلك حين يستمع

لصاحب الاستشارة في ظروف غير مناسبة، ثم يعطي رأيه على عجالة، يعطي رأيه وهو يسير في الطريق، أو يتسوق، أو يتصفَّح كتابًا، أو يسمر مع أقرانه، ويغفل عن تَبِعَة رأيه، وعن أثره على مصير الآخرين.

ولثقة المستشير برأيه فقد يُسَلِّم له دون تفكير أو مناقشة؛ ثقةً برأيه، وتقديرًا لخبرته الطويلة.

وهذا يحمِّل المستشار مسؤوليَّة كبيرة، وبالأخص في الآراء الجريئة والمواقف الحادة، وأن يتجرأ على طلب مهلة للتفكير، أو الاعتذار عن المشورة.

وقد تعلمت من هذا الموقف أن أصغي جيدًا لصاحب الاستشارة، وأن أتوقف كثيرًا قبل إعطاء أيّ رأي جريء، وأن أستحضر التفاصيل التي تؤثر على الرأي؛ فأسأل عنها قبل أن أُبدي رأيي لمن يستشير.

وتعلمت أن أُحمِّل من يستشيرني المسؤولية، فأقول له: هذا هو رأيي في ضوء المعلومات التي أعطيتني

إيَّاها، ويبقى رأيي متأثرًا بشخصيتي وبتفكيري، وبحجم المعلومات التي عرفتها عن الموضوع، وهو لا يُعفِيك من مسؤولية اتخاذ القرار.

وتعلمت أن أعطي المستشير خيارات عدَّة، لا سيما إن كان الموقف يتناسب مع إعطاء هذه الخيارات، وكانت خيارات ممكنة، ويستطيع المقارنة بينها، وأوضِّح له ما يترتَّب على كل خيار، وهذا -من جهة نظري- له أهمية بالغة؛ فهو يحمِّل الشخصَ تبعات قراره، كما أنه يُسْهِم في تنمية تفكير الناس، ويُعْلِي من قُدرتهم على اتخاذ القرارات والمواقف باقتناعٍ.

نظراتك.. قد لا يراها الناس بريئة!

اعتدتُ حين أتحدث مع الناس - سواء كنت خطيبًا أو محاضرًا، أو متحدِّثًا في صفّ دراسي، أو بين مجموعة محدودة من الناس- على أن أوزِّع نظراتي على الحضور بسرعةٍ وتتابعٍ، حتى إنَّ أحدهم شبَّهني ذات مرة - بالمروحة الأرضية - لكثرة دورانها !

ولم أتساءل في نفسي: هل هذه من الصفات الجيدة لديَّ أم أنها صفة سيئة؟

والأكيد أن مثل هذه الصفات لها جوانب إيجابية؛ فمن إيجابياتها أنك تجذب نظر من أمامك، وتشدّ انتباه الحضور، وتلحظ مدى تواصلهم معك؛ غير أني اكتشفت أن لها سلبيات أيضًا!

كنت أتحدث في الصفّ الدراسي أمام طلابي، ومن الطبيعي ألا أعرف الكثير عن خصوصياتهم

وتفاصيل حياتهم، ووصلت بحديثي إلى العلاقات السيئة التي يقيمها بعض الشباب مع الفتيات، فاسترسلت في هذه النقطة، وكنت كعادتي أوزِّع نظراتي عليهم حتى أنهيت حديثي ثم انصرفت.

بعدها بأيام أخبرني أحد طلاب ذلك الصف - ممن تربطني به علاقة مصاهرة- بأن زميلاً له في الصفّ قال له: إن الأستاذ محمد كان يقصدني بكلامه حينما تحدَّث عن العلاقات السيئة؛ لأنه كان ينظر إليَّ أثناء الحديث!

وذكر لي هذا الطالب عن مغامرات وتجاوزات زميله هذا الذي ظنَّ بأنني قصدته بحديثي، مع أنني لم أكن أعلم بأنه يقع في مثل هذه التجاوزات؛ بل كان ممن أستبعد وقوع ذلك منه!

ولست متذكرًا هل كنت أنظر إليه بتركيز أم لا.

وهذا من الإشكالات التي تنشأ من سوء فهم النظرات في مثل هذه المواقف؛ فقد نرى من هو متفاعل مع حديثنا، لكنَّ دافعه لذلك ليس هو

الاهتمام أو الإعجاب؛ بل ربما كان دافع تفاعله القلق، أو اعتبار لم يرد في خاطرنا.

ويبدو أنه قد حدث تواصل بصري بيني وبين ذلك الطالب أثناء حديثي عن الظاهرة؛ لكنَّ تفسيره السلبي لنظراتي جعلني فيما بعد أراقب نظراتي حين أتطرَّق لما فيه حَرَج، أو حين أتحدَّث عن أخطاء وممارسات سلوكيَّة معينة؛ إذ عليَّ تجنُّب النظر إلى أشخاص أو جهة معينة فقد يفهم مَن تنظر إليه أنك تقصده بكلامك، أو أن يفهم الآخرون ذلك!

ومن المواقف الطريفة التي مرَّت بي في موضوع النظرات، ما حدَث لي في مكة، حين كنت ألقي محاضرة على جَمْع من الناس، وكنت وقتها أستخدم جهاز هاتف شبه ذكي، قبل أن يظهر جيل الهواتف الذكية، وقد كان إصدارًا جديدًا يتيح لي حفظ النصوص وكتابتها، واستعملته في تدوين النقاط التي أتحدث عنها في أثناء المحاضرة، وكانت الهواتف المتاحة يومها هواتف عادية، فكان أحد الحضور الجالسين أمامي يتابعني بدقة واهتمام.

ولا شكَّ أن أيَّ متحدِّث، وبحسب الطبيعة البشرية، يحب أن يرى مَن يتفاعل مع حديثه، ويتأثر بما يقول، فكان اهتمامه يغريني بالنظر إليه المرة تلو المرة؛ كنوع من إيصال رسالة إيجابية إلى نفسي، إضافةً إلى لفت انتباهه أكثر.

وبعد انتهاء المحاضرة جلست بصحبة المنظِّمين لها نتناول القهوة، وعندما خرجت وجدت ذلك الشاب ينتظرني فأيقنت بأنه كان متفاعلاً مع حديثي، بدليل أنه انتظرني، إما ليشكرني أو ليسألني.

وبعد أن سلَّم عليَّ أخبرني بأنه مُهتَمّ بالاتصالات وبالأجهزة وتقنياتها، وأن جهاز الهاتف الذي أحمله قد لفت نظره، وسألني: ما هو نوعه؟

ضحكت في أعماقي، وكتمت ما جال بخاطري بعد أن عرفت بأن الذي شدَّ انتباهه ليس موضوع المحاضرة؛ بل لم يكن متفاعلاً معي بسببها بقَدْر ما كان مهتمًّا بالجهاز الذي أحمله !!

وقد تعلمت من موقفي مع طلابي أن أعطي

المزيد من العناية للغة العيون، وأنواع النظرات، وأن أحدِّد بدقةٍ متى أنظر لمن أمامي بعمق، ومتى أتجنَّب النظر نحوه، وقد عرفت بعدها الكثير عن مدى تأثير النظرات في الآخرين، وصرتُ أكثر تحكمًا في توزيع نظراتي على جمهوري. **ومما يدخل في ذلك: التلميح بما يشبه التصريح**؛ فبعض المتحدثين يلجأ إلى التلميح في حديثه مع طلابه، أو مع أفراد أسرته، أو واحد منهم، لكنَّ هذا التلميح لا يحتمل مقصدًا آخر.

قد يقتضي الموقف التصريح فلنتحدث بصراحة تلائم الموقف، وقد يقتضي التلميح فلنلَمِّح بصورة مناسبة، وربما اقتضى السكوت؛ لأن من أمامنا قد أدرك خطأه، ووعى ما عليه فِعْله.

لكنَّ استغفال الناس بتلميحٍ غير ملائم ربما كان أثره أسوأ من أثر التصريح الذي تلافاه صاحبه.

إهمال بعض التفاصيل قد يؤذي

في إحدى المرَّات، وأثناء زيارتي لدولة عربية كان جزءٌ من برنامجي يتَّصل بالمرأة، وقد تولَّت جمعية نسويَّة تنظيم ما يخصُّ النساء، ودعتني لإحياء لقاءين نسويين؛ الأول عبارة عن محاضرة عامة، والثاني كان لقاء خاصًّا بنُخْبَة من الأخوات العاملات في المجال الدعويّ.

كان العنوان الموجَّه للداعيات "كيف أكون امرأة فاعلة؟"، وهو عنوان ملائم، ويخاطب المرأة العاملة الناشطة في مجال الدعوة، أما المحاضرة العامة فكانت بعنوان "معاصي الأبرار ومعاصي الفجار"، وكان موضوعها يدور حول المعاصي، والفرق بين واقع الأتقياء وواقع العصاة معها.

إلا أنَّ الأمر اختلط عليَّ؛ فقدَّمت العنوان الخاص لعامة النساء، والعنوان العام جعلته من نصيب نُخْبَة الداعيات!

وحينما أتيت إلى اللقاء الخاص حدثتهن حديثًا وعظيًّا؛ إذ لم أستطع تمييز الجمهور، ومن الطبيعي في اللقاءات النسوية ألا يتمكن المتحدِّث من تمييز نوعية الحضور.

ألقيت المحاضرتين بخلطٍ غير متعمَّد؛ فلقي ذلك سخطًا بالغًا من الأخوات الداعيات، لاسيما وأنهنَّ مَن اقترح ذلك العنوان الذي قدَّمته لعامة النساء، وبعضهن فرَّغَتْ نفسها لحضور هذا اللقاء، وكانت تتوقع منه جديدًا، ولست أدري فلربما لو حضرنه فلن يجدن هذا الجديد الذي يأملنه.

وبرغم مرور زمن على هذا الموقف، إلا أن هذا الخطأ لا يزال عالقًا بذهني؛ فقد أزعجني ما حصل فيه مِن خلطٍ، وربما أن المنظِّمين له والحضور قد نسوا أمره، لكنني لم أنسه، وكما يقال: "يَنْسَى الصافع ولا يَنْسى المصفوع"، وأحسب أني كنت الصافع المصفوع في هذا الموقف !

إن هذا النوع من الخطأ قد يتكرر؛ بسبب الغفلة

عن التفاصيل الدقيقة والمهمة، فالإنسان بطبيعته قد لا يركِّز على التفاصيل الدقيقة على الرغم من أهميتها في كثير من الأحايين.

ولو عاد بي الزمن إلى الوراء كنت سوف أسأل قبل البدء في الحديث: أيّ اللقاءين هذا؟ ولم أكن لأترك الموضوع لفهمي واستنباطي، الذي كان مصدره أن اللقاء الذي ظننته للعامة قد أُقيم في أحد المباني الخاصَّة بتعليم القرآن الكريم، بينما اللقاء النخبوي كان في المؤسَّسة نفسها؛ فاستنتجت نوعيَّة الحضور بحسب موقع اللقاء.

لقد كان موقفًا محرجًا..!

غير أني تعلمت منه أن أعتني بالتفاصيل الدقيقة وأسأل عنها، وأجتهد في استحضارها؛ لأنها قد تكون مهمَّة للغاية، والأخطاء التي تنشأ بسبب إهمالها قد تكون أخطاءً جسيمة، ولن يرفع عنك الحرج اعتذارك بعدم أهمية التفاصيل، بل ربما أدَّى ذلك إلى زيادة الطين بلَّة.

وتعلمت أن الكثير من التفاصيل الدقيقة تفقد قيمتها حينما نعلم بها بعد فوات الأوان، بل ربما كان سبب اكتشافنا له هو خطؤنا في تجاهلها.

وبعض التفاصيل الدقيقة، قد تكون متعلِّقة بالحياة الأُسريَّة؛ فقد يختلف الزوجان في أهمية بعض التفاصيل والاعتناء بها؛ فينظر أحدهما إلى الأمر على أنه هامشي لا يستحق العناية، بينما يراه الطرف الآخر إهمالاً وقلة مبالاة.

وعلى مستوى العلاقات واللقاءات الاجتماعية ربما أدَّى تجاهُل ما يتفاوت الناس في النظر لأهميته من التفاصيل إلى سوء فهم وأزمة في العلاقة.

والناس يتباينون تباينًا ملحوظًا في مدى العناية بالتفاصيل، وتُصَوِّر مريم سالم ذلك التباين قائلة: «كثيرون مَن تُقلقهم التفاصيل الصغيرة قبل الكبيرة، ويتحرّون الدقة عند الاستماع للطرف الآخر حتى لا يسقط أي تفاصيل؛ فيعيدون الأسئلة عن كل شاردة وواردة لدرجة أن تلفظ نفسك

وتكره تلك الساعة التي جمعتك بهم، أما البعض فيغرق الآخرين بالتفاصيل الهامشية جدًّا، وقبل أن يصل إلى لُبّ الموضوع ينتحر المستمع نفسيًّا، وتراوده الأفكار السوداء في كيفية الإجهاز على محدِّثه، وغالبًا ما ينتهي الودّ بين هكذا أصدقاء.. فلماذا هذه العناية بالتفاصيل القاتلة عند البعض، ولماذا يسقطها الآخرون دون إعارتها التفاتة؟» (جريدة البيان ٢١-٨-٢٠١٧).

وبغض النظر عن موقفنا من اعتناء الطرف المقابل بالتفاصيل، فعلينا ألا نهملها، وألا نفترض أن الآخرين يفكرون كما نفكر.

كما تتأكد أهمية التفاصيل حينما نلتقي بأفراد من مجتمعات مختلفة؛ فاختلاف العادات وطبائع الناس وتفاوتها من الأمور الحساسة جدًّا، والجهل بها قد يثير أزمة بين الداعية وبين من يخاطبهم، سواء أكان ذلك في حديث عامّ أو خاصّ.

وحين تُلَامَ على إهمال ما لا ترى أهميته من

التفاصيل؛ فالاعتذار والاعتراف بالتقصير من تمام اللباقة والذوق، دون الإشارة إلى رأيك في عدم أهمية ذلك؛ إذ كثير من الناس يقرأ ذلك على أنه قلة اهتمام، لا أنه اختلاف رأي.

بين مكة والخرطوم

سافرت إلى السودان في مهمة عمل؛ فدُعِيتُ لإلقاء محاضرة عامَّة في أحد مساجد الخرطوم.

كنت منشغلاً في مهمتي العملية؛ فلم يُتَح لي الوقت الكافي للتفكير والإعداد الجيد لما سأقدمه في المحاضرة.

وعندما حان موعدها، دخلت للمسجد ففوجئت بأن المنظمين قد توسَّعوا في الدعوات، فامتلأ المسجد بالحاضرين، وكانوا خليطًا من كافة أطياف الإسلاميين وفئاتهم، وقد اقترح المنظِّمون عليَّ عنوان " الأمة بين فقه البناء والمواجهة" وكنا قريبي عهد بأحداث الحادي عشر من سبتمبر، والعالم يتهيَّأ لغزو العراق.

وبحسب طبيعتي فقد مِلْتُ في حديثي إلى محور البناء، وركَّزت عليه لاقتناعي بمدى أهمية العناية

ببناء الأمة، فتحدَّثت حديثًا هادئًا عن أزمات الأمة ومشكلاتها، والواقع الذي آلت إليه، مبيّنًا أنَّ ما وصلت إليه الأمة اليوم هو نتاج عقود متطاولة من البعد عن الدين، ومن الضعف المادي والتقني، وذكرت بأنَّ هذه الأزمات لا يمكن معالجتها من خلال القفزات، أو الطفرات الحماسية !

وكان مما قلته في المحاضرة: نحن أمة ضعيفة وعلينا الاعتراف بذلك، والإقرار بأنه لا طاقة لنا بمقارعة الكبار، وينبغي علينا قبل أن نقفز إلى مواجهة الكبار أن نعتني ببناء أُمّتنا من الداخل بما يهيئها ويُعِدّها لهذه المواجهة؛ فالدفع بالأُمَّة إلى مربع المواجهة قبل الاستعداد التام سيَضُرُّ بها غاية الإضرار.

وهكذا دارت المحاضرة كلها حول هذه الفكرة، ولم أكن يومها مستحضرًا طبيعة الشعب السوداني، كنت غافلاً عن تفاعله مع أحداث الحادي عشر من سبتمبر -كغيره من الشعوب الإسلامية- وعن أسلوب كثير من جمهور الحضور في النظر إلى قضايا الأمة الساخنة والتعامل معها.

وقبل ظهور نتائج أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وتجلِّي آثارها السلبية كانت محل قبول كثير من المسلمين باعتبارها تُمَثِّل لونًا من ألوان مواجهة الاستكبار العالمي، ولونًا من ألوان الانتصار للأُمَّة، والانتقام للمستضعفين من أبنائها.

غير أن قلة من الناس كانوا حينذاك يرون أن نتائجها ستكون وخيمة.

وبعيدًا عن مناقشة هذا الحدث والموقف منه، فالحاصل أن حديثي يومها لم يَرُقْ لجمهور الحاضرين، لاسيما أصحاب المواقف العاطفيَّة، والذين من الطبيعي أن تكون ردة فعلهم متَّسقة مع طريقة تفكيرهم الانفعالي؛ فهم في العادة يُصْدُرون أحكامًا قاسية على من يطرح طرحًا كهذا.

وقد كان لهم يومها ردة فعل صارخة وساخطة، ليس مصدرها سوء نية أو موقف سلبي من المتحدِّث أمامهم، إنما هو صِدْق في التديُّن، وصِدْق في العاطفة تجاه هذا النوع من قضايا الأُمَّة.

بعد إتمامي للمحاضرة جاءني سيل جارف من الأسئلة، وكان مقدِّم المحاضرة أحد طلاب العلم، وكان ذا عقل ومنطق، ومتَّفق معي فيما طرحته؛ فاجتهد في اختيار أخفّ الأسئلة وألطفها نبرةً، وعرضها عليَّ فأجبت عليها، ثم انصرفنا لتناول العشاء.

وعلى مائدة العشاء اجتمعت مع عددٍ من الدعاة، وكانوا متَّفقين معي في مجمل ما طرحته، لكنهم لم يروه مناسبًا في هذا الظرف، وبهذه الصورة.

بعدها عدت لتفحُّص بقية أسئلة الجمهور؛ فوجدت فيها نقدًا لاذعًا ورفضًا صارخًا لما طرحته؛ بل إن بعضهم اتهمني بالعمالة، ولربما إن التقيت بالأخ مقدم المحاضرة بعد مرور هذه السنوات وبعد قراءته لهذا الكتاب فسوف يمازحني كعادته قائلاً: أهلاً بالعميل!

فقد قال لي يومها بأن أحد الحضور قال له صراحة: إنَّ هذا المحاضر عَمِيلٌ!

ولقيت بعد أشهر من ذلك الموقف أحد الأشياخ الأفاضل فسألني بابتسامة: ماذا فعلت في الخرطوم؟

قلت له: وما ذاك؟ فحدثني عن داعية سوداني يقول له -بلهجته السودانية اللطيفة-" الشارع بيغلي، والزول بيقول: البناء، البناء!".

لقد ندمت لأنني لم أتأمل في وضع الحضور، أو أستشف توجهاتهم قبل إلقاء تلك المحاضرة، فلربما لو فعلت كنت سأوفَّق في إيصال فكرتي بطريقة أفضل.

وقد حدَث لي موقف آخر مشابه، وذلك بعد الغزو الأمريكي للعراق، وبالتحديد في شهر رمضان، أيام اشتعال أحداث الفلوجة، والتي كانت مؤلمة جدًّا، وقد تفاعل معها أغلبية المسلمين كواجبٍ شرعيّ.

آنذاك، كنت في مكة المكرمة، فدخلت إلى أحد مساجدها لأداء صلاة العصر، فدعاني الإمام لأصلي معهم صلاة القيام في تلك الليلة، وألقي بعدها كلمة على المصلين، فاعتذرت له مبينًا بأنني أريد الصلاة

في الحرم المكي؛ فألح عليَّ مذكِّرًا إيايَّ بفضل العمل المتعدِّي على العمل القاصر، فقلت له: نحن في العشر الأواخر، وأحسب أن إدراكي للصلاة في الحرم أفضل، فأخبرني بأنه ينتهي من صلاة القيام متأخرًا بحيث يمكنني إدراك الصلاة في الحرم، ثم آتي وألقي كلمة على المصلين عنده.

صليت في الحرم، ثم أتيته على عَجَل، فوجدته في صلاة الوتر، وكان يقرأ سورة الأعلى، وكان ذا صوت حَسَن، ومسجده ممتلئ بالمصلين!

انتظرته عند مدخل المسجد، واستمعت لقنوته الذي كان أغلبه عن أحداث الفلوجة التي شغلت المسلمين، وقد كنت عزمت على التحدُّث عن موضوع «التعامل مع مآسي المسلمين»، وقررت في نفسي أن أركز في حديثي على أهمية النظرة البعيدة للموقف، وأن نُصرتنا لقضايا المسلمين لن تتحقَّق بمجرَّد اشتعال العاطفة؛ بل نحن بحاجةٍ إلى مشروعات بعيدة المدى.

لكنني وبمجرد سماعي لدعاء الشيخ تذكرتُ ما حصل لي في السودان، وخشيت أن تتكرر التجربة؛ فغيَّرت مجرى حديثي، وجعلت أوله شكرًا وثناءً على الإمام على هذا الدعاء، ثم قدَّمت لهم مدخلاً يسيرًا عن هذه الأزمة وقلت للمصلِّين:

إنَّ أمامنا واجبين تجاه أزمات المسلمين:

الواجب الأول: -وهو العاجل- يتمثَّل في التعاطف والتفاعل، وبذل المال لمن يستطيع ذلك، والاجتهاد في الدعاء لإخواننا، وبخاصَّة في هذه الأوقات الفاضلة.

وإن الولاء لقضايا الأُمَّة أمر متَّصل بالإيمان، فليس مجرد وعي فكري، أو انشغال بشأن سياسي.

والواجب الثاني: هو الواجب بعيد المدى، وهو لا يقتصر على التفاعل مع الحدث بعينه، إنما يمتد ليتناول الحالة التي أوجدت الحدث، ولو تساءل أحدنا: ماذا يمكنه أن يقدم للأُمَّة خلال عشر سنوات قادمة؟ فسيرى أن أمامه الكثير من

الفُرَص التي لا تُتاح له على المدى القصير؛ فاتِّساع دائرة النظر زمانًا، وموضوعًا ومجالاً يفتح أمامنا خيارات رحبة ليست متاحة لنا اليوم.

وأن هذا الحدث الذي نعيشه ليس جوهر المشكلة؛ إنما هو نتيجة من نتائج الحالة العامة للأمة، والحل الحقيقيّ لمثل هذه المشكلات أن نُسْهِم جميعًا في الارتقاء بالأمة.

أفضتُ كثيرًا في الحديث عن الواجب الثاني معظم الوقت المخصَّص للكلمة، بينما أخذ مني الحديث عن الجانب الأول دقائق معدودة.

لكنني بتلك الدقائق القليلة أخذت الناس معي، وهكذا تفاعل المصلون مع تلك الكلمة التي ألقيتها، وكانت ردة فعلهم مختلفة.

لقد استوعبتُ الدرسَ من الخطأ الذي وقعتُ فيه في الخرطوم، حتى أني لم أعد نادمًا عليه؛ فبدونه ربما كنت سأقع فيما هو أسوأ أثرًا.

ولقد تعلمت من ذلك أهمية مراعاة واقع الناس حين الحديث معهم، ولا سيما أولئك الذين يملكون عواطف قبول أو رفض تجاه موقف معيَّن أو ظاهرة معيَّنة، وهذا لا يعني بالضرورة أن نُحدِّث الناس بما يريدون أو بما يفضِّلون، وإنما المقصود اختيار المدخل المناسب للحديث معهم، وحين نسعى لتغيير موقفهم، فعلينا أن ندقِّق في المقدمات التي نعرضها عليهم لإيجاد وتهيئة أرضية مشتركة معهم.

وتعلمت أنه ليس من المصلحة ولا من الحكمة الشرعية مواجهة هذه العواطف بالرفض الصارم، أو إطلاق أوصاف قاسية على مَن يحملونها كالقول بأنها مجرد مشاعر فارغة لا تنفع، ولا يملك أصحابها سواها، **وما إلى ذلك**.

هذه اللغة سوف تقود هؤلاء إلى وضع حواجز بينهم وبين مَن يخاطبهم منتقدًا عواطفهم؛ فلا هو أفلحَ في تغيير مواقفهم، ولا هو احتفظ بصلة الودّ معهم، واستيعاب مشاعر الناس وعواطفهم وحُسن توجيهها شرطٌ مُهِمّ لقبولهم لما يعرضه الداعية، وقد

عانى كثيرٌ من عقلاء الدعاة وطلبة العلم بسبب مواجهتهم الصريحة لعواطف الناس، وحدَّتهم في نقدها.

وتعلمت أهمية دور الداعية في تصحيح مواقف الناس، وبالأخص ضبط عواطفهم وتوجيهها، مع مراعاة أن العواطف لا تُعالَج من خلال مصادمتها؛ فلا يَصِحُّ أن نستخفَّ بعواطف الناس ونُسَفِّهها؛ لأن ذلك سوف يَستفزهم، ويخلق أزمات نحن في غنًى عنها، ويجب علينا أن نُمْعِن النظر في مَنْبع هذه العواطف قبل الحكم عليها؛ فهي ليست سوى تعبير عفويّ ناجِم عن غيرة الناس على الدين، وتأسّيهم لواقع الأمة، وشعورهم بالمرارة من كيد الأعداء.

وبعد أن نَتَفَهَّمَ هذه العواطف يمكننا الانتقال بيُسْرٍ إلى دورنا في ضبطها بحيث لا تقود إلى تصرُّفات غير شرعيَّة، ثم نُضيف إلى العاطفة عامل التفكير المنطقي والعمل المثمر البنَّاء.

وبهذا الأسلوب سوف نَستثمر عواطف الناس

ونُحوِّلها من أزمة ومشكلة إلى طاقة خلَّاقة.

إنَّ كثيرًا من المشاعر العاطفية الجياشة لدى الجيل يمكن التعامل معها واستيعابها بحكمةٍ، وحين نقترب من أصحابها سنرى أن كثيرًا منهم أقرب مما يبدو لنا لأول وهلة.

جاءني شابّ من أقصى المسجد متوقِّد حماسة، يتغنَّى بأبيات حول الجهاد، وذلك بعد كلمة لي بعد صلاة التراويح، انتقدت فيها أحد أحداث العنف، وحذَّرت من الغلوّ وتبعاته.

ابتسمت له وقلت: لدي الآن موعد مهم، والوقت لا يكفي لنقاش هذا الموضوع، فما رأيك أن تصلي العصر عندي ونتحاور فيما تشاء، ثم نفطر سويًّا، فأتاني، وكان لقاءً مثمرًا، ورأيت أن ابني قريب مستعِدّ للإنصات والاستماع، وانصرف وقد تحوَّلت بوصلته؛ بحمد الله.

وتعلمت أن علينا النظر إلى عواطف الناس ومشاعرهم على أنها طاقة تتطلب حسن التوجيه

والتهذيب، والتفكير الجيِّد في استثمارها وتوظيفها، لا في مواجهتها والاصطدام معها.

وتعلمت أن هناك طرقًا يسيرة لتقديم ما نقوله للناس بقالب يشجِّع على القبول، وأن الأفكار التي نقدِّمها للآخرين كالبضاعة التي يقدِّمها التاجر؛ فتروج بضاعة سيئة لحسن عرضها، وتَكْسد بضاعة جيِّدة لسوء عرضها وتسويقها.

لم يكن الفارق كبيرًا في جوهر حديثي بين ما قلته في مكة والخرطوم، لكن الأثر كان مختلفًا، والسبب فيما أحسب هو اختيار المدخل المناسب.

وتعلمت أنه بدلاً من أن نُحمِّل الناس مسؤولية رَفْض ما نقوله، لنُحَمِّل أنفسنا مسؤوليَّة عدم حُسن تقديمه، وأن استمرارنا في لوم الناس، وانتقاد واقعهم لن يجدي، فعلينا بدلاً من ذلك أن نتساءل عن دورنا في التعامل مع هذا الواقع.

وأحسب أننا في واقعنا الدعوي قد أفضنا كثيرًا في انتقاد الحماسة غير المنضبطة، وأسهبنا في الحديث

عن العواطف، وهذا قد يكون مطلوبًا حين تُراعَى فيه الحكمة.

لكننا بحاجةٍ إلى إثارة سؤال جوهري: ما مدى مسؤوليتنا عن إدارة الأزمة؟

وما الذي يمكننا فعله؟

وإذا كنا نلوم الشباب على تغييب العقل على حساب العاطفة والمشاعر، فلنتحمل المسؤوليَّة في أن نوظِّف ما منَحنا الله من عقلٍ وتفكيرٍ في البحث الجادّ عما يمكننا القيام به لترشيد هذه العواطف وتوجيهها، ولاحتواء الجيل بدلاً من مصادمته.

خطيب الضرورة

أوكل إليَّ أحد الزملاء الأفاضل إلقاء خطبة الجمعة نيابةً عنه، وكانت تلك المرة الأولى التي أُلقي فيها خطبة في هذا المسجد، وكان يومي مزدحمًا بالأعمال فلم أتمكن من التحضير والإعداد الجيد؛ فلجأت إلى خطبة سابقة كانت مكتوبة لديَّ، وكانت حول موضوع "التعلق بالحياة الدنيا".

أخذت تلك الخطبة وصعدت إلى المنبر، وتفرَّست في وجوه المصلين أثناء الأذان؛ فوجدتُ معظمهم من العمال، وهم من أقل الناس دخلاً، ومعظمهم -إن لم يكن جميعهم- وافدٌ إلى هذا البلد لحاجتهم للعمل؛ إذ لو استغنوا لعادوا إلى بلدانهم.

فتساءلت في نفسي: كيف أحدَّث هؤلاء عن خطورة التعلق بالدنيا وهم أقل الناس حظًّا منها؟ أليس الأجدى أن أحدِّثهم عن شيء يحتاجونه؟ مثل

مدى مسؤوليتهم تجاه كسب الرزق، وأن أذكرهم بأن إنفاقهم على أنفسهم وعلى ذويهم صدقة لوجه -الله تعالى-؛ لأنني إنْ حدَّثتهم عن التعلُّق بالدنيا فسيقودهم ذلك إلى رفض حديثي برُمَّته، وسوف ينعكس هذا الموقف على جميع ما سوف يسمعونه مني في المستقبل، بل ربما عمَّموا هذا الموقف تجاه غيري من الخطباء والمتحدِّثين، وقد يقود حديثي معهم عن خطورة التعلق بالدنيا إلى تفكير بعضهم في مدى جدوى عمله فيعمد لتركه.

وقد يعيش بعضهم في صراع داخلي حين يشعر بأنه يضيِّع وقته في الجري وراء لقمة العيش؛ فيتملَّكه إحساس بالحسرة حتى وإن استمر في عمله.

وكل هذه النتائج غير مقبولة وغير محمودة؛ فقرَّرت من فوري أن أغيِّر الموضوع، وأخذت الأفكار ترد إليَّ تباعًا.

وفي مثل هذا الموقف لا بد أن يستحضر الداعية موضوعات عامة تناسب جميع الناس، وفي ذات

الوقت يكون على يقين من أنه قادر على الحديث عنها وإلقائها بطلاقة ودون تردُّد، فالمؤذن لن ينتظرك حتى تقطع تردُّدك، أو تنتهي من إعدادك.

يومها اخترت الحديث عن فضل الذكر، وهو موضوع لا يحتاج إلى كثير إعداد لاسيما لمن اعتاد على الحديث، فالنصوص من القرآن والسنة وافرة وحاضرة.

أنهيت تلك الخطبة، وكان من بين الحضور أحد زملائي؛ فسألته بعد الصلاة عن رأيه فأثنى عليها، وقال: من الواضح أنك قد أعددت لها جيدًا، فضحكت وقلت له: لقد ابتدأتها وأنا لم أحدد بعد موضوعها.

إن سردي لهذا الحدث وهذا الموقف ليس دعوة لاتخاذ هذا الأسلوب كمنهج؛ إذ من غير المناسب إطلاقًا أن يتأخر الخطيب في تحديد موضوع خطبته، فضلاً عن أن يبدأ الخطبة وهو لا يدري عن ماذا سيتحدث.

إنما المقصود بإيراد هذه القصة هو التنبيه لقضية مهمَّة؛ ألا وهي مراعاة حال الجمهور عند اختيار الموضوع؛ فقد حصل لي ذات مرة أن خطبت عن تعدُّد الزوجات، وكان هدفي من اختيار هذا الموضوع وقتها هو تقرير أن التعدُّد مبدأ شرعي، وأننا لا ينبغي أن نتأثر بما يُثَار ويُطْرَح حوله في وسائل الإعلام؛ لكنني سرعان ما اكتشفت بأنني لم أكن موفَّقًا يومها في اختياري لهذا الموضوع؛ إذ بمجرد انتهائي منها وخروجي من المسجد لحق بي شابٌّ، وأوقفني قائلاً: أنا شابٌّ بلغت سنّ الزواج منذ زمن ولم أتزوج بعدُ، فأنا وأمثالي أَوْلَى بالحديث عن شأننا من أولئك المتزوجين الذين يبحثون عن زوجة أخرى.

فقلت له: وما الذي يمنعك من الزواج؟!

قال: غلاء المهور؛ فانا أحتاج لأكثر من مائتي ألف ريال.

فقلت له: ولماذا؟

أجابنـي: لأنني ملـزم بالتـزوج مـن أقـاربي أو قبيلتي، وهم لا يقبلون بأقل من ذلك.

وهكذا اكتشفت مدى سوء تقديري عند اختياري للحديث في موضوع التعدُّد مع هذه الفئة من المصلين؛ إذ إنهم ليسوا بحاجة إلى الحديث عن الشُّبَه التي تُثَار حول تعدُّد الزوجات، ولا عن أهميته، أو الحثّ عليه، ولا عن طريقة التعاطي معه؛ حيث إن نسبةً كبيرةً منهم غير متزوجين أصلاً، والمتزوج منهم لا يكاد يجد ما ينفقه على زوجته وأسرته، فضلاً عن أن يتزوج بأخرى.

هذان الموقفان متعاكسان؛ ففي الأول وُفِّقْتُ لاستدراك الأمر وتصحيح الاختيار، وفي الموقف الثاني أدركت متأخرًا بأنني أسأت الاختيار.

لكنني تعلمت من الموقفين أهمية أن يكون موضوع حديثنا ملائمًا للجميع حين نتحدث في مجاميع عامة لا نعرف طبيعتها ولا احتياجات أفرادها، سواء أكان حديثنا في محاضرة أو خطبة

جمعة، أو عبر وسيلة إعلامية عامَّة، وأن نبتعد عما لا يناسب سوى فئة معينة من الناس.

والأمر لا يقتصر على موضوع الحديث وعنوانه؛ فالموضوع الواحد يمكن تناوله بما يناسب العامة، أو الخاصة.

وتعلمت أنه من الضروري أن يكون لدى المتحدِّث رصيد من الموضوعات الجاهزة في ذهنه، والتي تصلح في جميع المناسبات العامة، حتى إذا صلى في مسجد، أو حضر مناسبة وطُلِبَ منه إلقاء كلمة أن يكون جاهزًا ومستعدًّا لتقديم ما يلائم الناس.

وتعلمت أن: أدقِّق في اختياري لما أقدِّمه في المجاميع العامة لا سيما ما يُعرَض عبر وسائل الإعلام المختلفة كالإذاعة والتلفاز وغيرها؛ حيث لا يمكن التحكُّم في الجمهور الذي نتحدَّث معه، وليس بالإمكان تفصيل الخطاب تفصيلاً دقيقًا يفي باحتياجات جمهور هذه الوسائل؛ لكنَّ علينا أن

نتجنَّب الحديث فيما هو من شأن الخاصة.

فالحديث عن دقائق الورع، وإيراد مواقف السلف الدقيقة معه -على سبيل المثال- هو مما لا يحتاجه جمهور التلفاز أو المذياع؛ بل هم في حاجة للحديث عن البعد عن المعاصي، ورعاية الفرائض، وما شابه ذلك؛ لأن معظمهم سيرون في الحديث عن دقائق الورع تزيُّدًا ومبالغةً، وربما قادهم ذلك إلى اليأس والإحباط.

ومما أتذكره في هذا السياق أنني حينما كنت شابًّا يافعًا؛ كنت أؤدي صلاة الجمعة مع إمام جامع صار أستاذًا لي بعد ذلك، وكان مشهورًا بالوعظ والرِّقة، وقد نفعني الله به كثيرًا في صلاتي معه وتدريسه لي؛ لكنه عندما كان يتحدث في خطبه عن أمور دقيقة تتصل بالتعامل مع المعاصي، أو يتحدث عن أمور دقيقة في الورع؛ كنت أتلقى من حديثه حينها رسائل إحباط قاسية، وأحسب أن هذا لم يكن شعوري بمفردي، وإنما هو شأن كثير من الناس.

فالحديث عن دقائق المسائل مما لا يحتاج إليه الناسُ، لا يؤدِّي بالضرورة إلى تحفيزهم بل ربما أدَّى إلى خَلْق مشاعر الإحباط واليأس لديهم.

وتعلمت أهمية التفريق بين صحة ما يقال ومناسبته للمقام أو الحضور؛ فصِحَّة ما نقوله بتفاصيله لا يعني مناسبة تقديمه للجمهور المستمع إلينا، سواء أكان حاضرًا أمامنا، أو يسمعنا ويشاهدنا عبر الأثير.

لا تستشر مثبِّطًا

ظلت فكرة كتاب «شباب الصحابة» تراودني لزمنٍ، وكنت أتأرجح ما بين إقدام وإحجام؛ فاستشرت أحد الزملاء في هذا الأمر فثبَّطَنِي كثيرًا، وقال لي:

هذا عمل يتطلب وقتًا طويلاً وجهدًا كبيرًا، ومن غير الممكن إنجازه من فرد، بل من خلال مشروع جماعي.

فما كان مني إلا أن تخليت عن الفكرة بعد تلك الاستشارة.

بعدها بمدة كنت أحضّر لمحاضرة بعنوان «المراهقون الوجه الآخر»؛ فوقع بين يدي كتاب يتناول جزءًا من الموضوع الذي تخليت عنه بعد تثبيط زميلي لي، ووجدت في ذلك الكتاب نماذج من شباب الصحابة -رضوان الله عليهم-، وقد استشهدت به

في المحاضرة، مع أن المؤلِّف لم يوفِّه حقَّه من البحث؛ لكن ذلك أثار فكرة تأليف كتاب «شباب الصحابة» لديّ من جديد؛ فقررت البدء فيه.

وكانت الخطوة الأولى لتنفيذ هذه الفكرة تستلزم تحديد معيار لمن يدخل في هذا السِّنّ، واستعراض كتب تراجم الصحابة -رضوان الله عليهم-، واستخراج من ينطبق عليه الوصف الذي حدَّدته سلفًا في ذهني لشخصيات الكتاب، ثم بعد ذلك يأتي دور البحث في مواقفهم، وهي خطوات تحتاج إلى جهد وبحث طويل.

وبعد مقارنة بين كتب التراجم وقع اختياري على كتاب «الإصابة» لابن حجر -رحمه الله-؛ لأنه استوعَب ما قبله من تراجم الصحابة؛ فقرأته واستخرجت منه كل من انطبق عليه معيار السنّ الذي حدَّدته.

ثم أخذتُ بجمع مواقفهم، وأضفتُ إلى ذلك قراءة مجموعة من الكتب والمصادر الأخرى،

ولكنني خشيتُ تفويت أشياء مهمة فانتدبتُ بعض طلابي النابهين ووكلتهم بقراءة كتاب الإصابة، واستخراج المطلوب وفق المعايير الآتية:

- تحديد سنة إسلام الصحابي وسنة وفاته.
- استخراج ما جاء في سياق ترجمته لتمييز هل كان ذلك الصحابي غلامًا أم شابًّا.
- استخراج جميع مَن كان آباؤهم صحابة.

وقد عمل ابن حجر على تقسيم كتابه «الإصابة» إلى أربعة أقسام، وهي كما بيَّنها كالآتي:

القسم الأول: فيمن وردت صُحبته بطريق الرواية عنه، أو عن غيره، سواء كانت الطريق صحيحة، أو حسنة، أو ضعيفة، أو وقَع ذِكْره بما يدلُّ على الصحبة بأيِّ طريقٍ كان.

القسم الثاني: مَن ذُكِرَ في الصحابة مَن الأطفال الذين وُلِدُوا في عهد النبي ﷺ لبعض الصحابة من النساء والرجال، ممن مات ﷺ وهو في دون سن

التمييز، إذ ذكر أولئك في الصحابة إنما هو على سبيل الإلحاق، لغلبة الظنّ على أنه ﷺ رآهم لتوفُّر دواعي أصحابه على إحضارهم أولادهم عنده عند ولادتهم ليحنِّكَهم ويسمِّيهم ويُبَرِّك عليهم.

القسم الثالث: فيمن ذكر في الكتب المذكورة من المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، ولم يرد في خبر قط أنهم اجتمعوا بالنبيّ ﷺ، ولا رأوه، سواء أسلموا في حياته أم لا، وهؤلاء ليسوا أصحابه باتفاق من أهل العلم بالحديث.

القسم الرابع: فيمن ذكر في الكتب المذكورة على سبيل الوهم والغلط، وبيان ذلك» (الإصابة ١/ ١٥٥-١٥٦ ملخصًا).

وبما أن القسم الأول هو الأكثر ورودًا فقد أوليته عناية خاصة، واستخرجت منه جميع الأسماء التي تنطبق عليها شروط بحثي، ثم قمت بمقارنتها بما توصل إليه طلابي فاقتنعت بأني استخرجت كل ما استخرجوه، وهم كذلك قد بذلوا معي جهدًا يُشْكَرُون عليه.

وبعد ذلك طفقتُ أقرأ باستفاضةٍ في كتب السِّيَر والمعاجم، وفي محرِّكات البحث الرقمية كموسوعة الكتب الستة التي أصدرتها شركة حرف -وكانت وحدها هي المصدر الرقمي المتاح في ذلك الوقت- وقرأت مرويَّات شباب الصحابة -رضوان الله عليهم- في مسند الإمام أحمد، باعتبار أن المسند يرتب الأحاديث حسب رواتها من الصحابة.

ثم مررت على السيرة مرورًا سريعًا، وقرأت تراجمهم في «سير أعلام النبلاء» وغيره، ثم قرأت «أسد الغابة» احتياطًا؛ إذ قد استوعب ابن حجر ما فيه، وقد تطلَّب مني العمل في الكتاب بحثًا وقراءة وجمع مادة؛ إذ إنه ليس ككثير من الكتب التي يعتمد جوهرها على الأفكار أكثر من كونه مادة علميَّة.

وأخيرًا خرج كتاب «شباب الصحابة» -بحمد الله تعالى-، وأشعر بأنه من أفضل ما كتبتُ؛ وذلك لأنني بذلت فيه جهدًا غير عاديّ.

الاستشارة من الأمور المهمة؛ فهي قد تَصْرِفك عن أمرٍ غير مناسب كنت في غاية الحماس له، أو

تُحفِّزُك على أمر كنت متردِّدًا فيه، وربما قادتك لتغيير مسار مشروعك، وفي المقابل ربما قادتك إلى التخلِّي عن فكرة مؤثِّرَة، أو مشروع ذي أهمية حين تطلبها من غير موضعها المناسب.

وأذكر في هذا السياق بأنَّ شخصًا استشارني في مشروع يريد أن يعرضه على إحدى الجهات، ومما أعلمه بأن هذه الجهة لا تتبنَّى ذلك النوع من المشروعات، فثبَّطته كثيرًا، ولكنه لحسن الحظ لم يأخذ بمشورتي، وعرض مشروعه على تلك الجهة، فتبنَّته وكان له أثر طيب، فحمدت -الله تعالى- أن هذا الشخص لم يأخذ برأيي.

وقد تعلمت في موضوع الاستشارة تجنُّب أمثال هؤلاء:

أولهم: الشخص المندفع، والذي يعجب بالفكرة سريعًا دون أن يمحِّصها؛ فهو دائمًا يستحسن أيّ فكرة تَعرضها عليه، ويَدفعك لتنفيذها على الفور.

ثانيهم: الشخص المتشائم والمحبَط، وهذا النوع

دائمًا ما يتوقع الفشل لأيِّ مشروع، وتقفز إلى ذهنه العقبات فورًا؛ إذ إنه ذو حساسية مفرطة تجاه المخاطر.

إن هذا النوع يجب الابتعاد عنه؛ لأنه مثبِّط على الدوام، وأذكر بأنني ذات مرة أعطيت أحدهم أول كتاب سطَّرته؛ فملأه بالتعليقات التي ربما فاقت حجم الكتاب، وأخذ يقرأ ما وراء السطور، فتجاهلت ملاحظاته، وتم الأمر على أكمل وجه؛ ولله الحمد والمنة.

ثالثهم: الشخص غير المتخصِّص؛ والتخصُّص ليس بالضرورة مرتبطًا بمسميات الدراسة العلمية، فقد يوجد شخص متخصِّص علميًّا وآخر متخصِّص عمليًّا بخبرة متراكمة، ومهما كان الشخص ذا علم وفقه ورأي فإنك حينما تستشيره في أمر هو غير متخصِّص فيه قد لا تستفيد منه كثيرًا؛ بل ربما يصرفك عن أمر مهم أو مشروع ناجح.

ويمكن أن نلمَس ذلك في سيرة النبي ﷺ فقد

كان يراعي التخصُّص عند الاستشارة؛ فعندما أراد مصالحة غطفان في غزوة الأحزاب على ثلثي ثمار المدينة، لم يَسْتَشر أبا بكر ولا عمر، ولا المهاجرين -رضوان الله عليهم- جميعًا، وإنما دعا السعدين؛ -سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة رضي الله عنهما-، واستشارهما لأنهما من سادات المدينة، والأمر يعني أهل المدينة بالدرجة الأولى؛ فأشارا عليه بألا يفعل، فأخذ ﷺ برأيهما.

وفي حادثة الإفك لم يستشر ﷺ الشيخين أبا بكر وعمر -رضي الله عنهما-؛ وإنما استشار شابين هما: علي بن أبي طالب، وأسامة بن زيد -رضي الله عنهما-؛ فقد كانا قريبين من بيت الرسول ﷺ ويعرفان عن بيوت النبي ما لا يعرفه سواهما؛ فأمَّا أُسامةُ فأشار عليه بالَّذي يعلَمُ في نفسِه مِن الوُدِّ لهم، فقال: أهلُك يا رسولَ الله ولا نعلَمُ والله إلَّا خيرًا. وأمَّا عِليٌّ فقال: يا رسولَ الله ﷺ لَمْ يُضيِّق اللهُ عليكَ، والنِّساءُ سواها كثيرٌ، وسَلِ الجاريةَ تصدُقْكَ. فدعا رسولُ الله ﷺ بَريرةَ فقال: «يا بَريرةُ هل رأَيْتِ فيها

شيئًا ما يريبُكِ»؟ فقالت: لا والَّذي بعَثك بالحقِّ إنْ رأَيْتُ منها أمرًا أغمِصُه عليها أكثَرَ مِن أنَّها جاريةٌ حديثةُ السِّنِّ تنامُ عنِ العجينِ فتأتي الدَّاجنُ فتأكُلُه».

[أخرجه البخاري ٢٦٦١، ومسلم ٢٧٧٠].

وتعلمت أيضًا أن علينا مراعاة تفاوت المشروعات وتباينها، فمنها ما يكفي فيه استشارة من يكون في متناول اليد، ومنها ما يستلزم استشارة أكثر من شخص من ذوي الخبرة، وهي المشروعات التي تتطلَّب مجهودًا كبيرًا وإنفاقًا عاليًا، أو التي تكون مكتنفة بالغموض، ومحاطة بالمخاطر الحقيقية في الربح والخسارة أو الفشل.

إن مثل هذه المشروعات تحتاج إلى استشارة متأنية، وإلى حوار ونقاش مستفيض مع من تستشيرهم.

وربما احتجت في ذلك إلى تنويع من تستشيرهم، ما بين مَن يغلب عليه الإقدام، ومن يغلب عليه التحفظ وإثارة التساؤلات، وفي النهاية أنت صاحب القرار، وأنت مَن يجب أن يتحمل مسؤوليته.

محاضر حاسر الرأس !

عندما أسافر إلى دولة غربية لا أحتاج إلى غطاء الرأس المسمى عندنا بـ «الشماغ».

وذات مرة كنت في إحدى الدول الغربية؛ فسافرت منها إلى إندونيسيا في زيارة خاطفة، تاركًا معظم أمتعتي في تلك الدولة؛ فدُعِيتُ إلى إلقاء محاضرة عامَّة في أحد مساجد إندونيسيا، وبالطبع لم يكن معي غطاء للرأس، فألقيت المحاضرة حاسرًا.

ولحسن الحظ أنني كنت مرتديًا الثوب وليس لباس الفرنجة، ومرَّ الأمر - كما ظننت في البداية - بسلام.

لكن حين جاء وقت طرح الأسئلة سألني أحد الحضور عن التعامل مع أهل البدع؟

فأجبت عن هذا السؤال، وسردت أثناء الإجابة قصة وقعت لي في إحدى الدول التي يتمسك

أهلها بالمذهب الحنفي، ويتشدَّدون في مسألة تغطية الرأس أثناء الصلاة، خاصة لمن كان إمامًا، وفي مصلى المطار قدمني المصلون إمامًا، وكان من عاداتهم وضع صندوق في المسجد يحتوي على عدد من أغطية الرأس للرجال، فأخذت غطاءً ووضعته على رأسي، ثم صليت بهم، وصلى معنا رجل من أبناء بلدي -يبدو أنه يعمل في مجال استقدام العمالة- وعندما رأى ما صنعته أنكر عليَّ مجاراتي لهم في تغطية الرأس إرضاءً لهم.

فقلت له: لم يقل أحد من أهل العلم بكراهية تغطية الرأس في الصلاة، وهؤلاء قوم لا يتقبّلون أن يصلي بهم إمام وهو حاسر الرأس، ولذا رأيت أن من المصلحة أن أراعيهم ولا سيما أن ما فعلته ليس بالأمر المحظور شرعًا.

وعندما أتممت سرد هذه القصة على المصلين في إندونيسيا ضحك مقدم المحاضرة الذي كان يقرأ الأسئلة ثم قال:

كنت قد استبعدت سؤالاً من أحد الحاضرين حول مجيئك حاسر الرأس وعدم ارتدائك «الشماغ» كما هو العرف في بلدكم ؟

فضحكت، وأجبته على السؤال مبينًا أنني أتيت إليهم من بلدة غربية لا أحتاج فيها لتغطية الرأس، ونسيت غترتي هناك.

وهكذا كان سردي لتلك القصة سببًا لأن يطرح المقدم عليَّ السؤال الذي كان سيستبعده، مما قد أتاح لي الفرصة لأبيِّن حقيقة الموقف وأشرح أسبابه.

من المهم جدًّا أن يعي الداعية طبائع الناس، ويتعرَّف على أساليبهم فيما يتعلق باللباس، ويعطي الأمر الأهمية ذاتها التي يعطيها لأساليب التعامل، ويجتهد في مراعاة ذلك، وخاصَّة فيما لا يترتب عليه محذور شرعي.

فالنبي ﷺ كان يراعي هذا الأمر؛ حيث كان يُولِّي على القبيلة رجلاً منها، وكان يراعي أعراف الناس؛ فحينما أراد مراسلة الملوك اتخذ الخاتم؛ مراعاةً

للعُرْفِ، فعن أنس بن مالك -رضي الله عنه-، قال: «كتب النبي ﷺ كتابًا -أو أراد أن يكتب- فقيل له: إنهم لا يقرءون كتابًا إلا مختومًا، فاتخذ خاتمًا من فضة، نَقْشُه: محمد رسول الله، كأني أنظر إلى بياضه في يده» [أخرجه البخاري ٦٥، ومسلم ٢٠٩٢].

وقد كان ﷺ يراعي الأعراف السائدة في زمنه، مثل عدم قتل الرسل؛ إذ كان يمتنع عن قتل الرسل حتى وإن صدر منهم ما يُوجِب القتل.

ولقد بقي موقف تقديمي للمحاضرة وأنا حاسر الرأس ثابتًا في ذاكرتي.

وتعلمت منه أن بعض الأمور التي قد لا نراها ذات شأن ربما تكون ذات حساسية عند عامة الناس، ولذلك يجب علينا مراعاتها حين نلقي خطبة أو محاضرة في مناسبات عامة، لاسيما في المجتمعات المختلفة عن مجتمعنا.

وهكذا في اللقاءات الشخصيَّة المحدودة ليس من اللائق التهاون في ذلك؛ لأن الناس يعدونه

من الاستخفاف بهم، وقد يعطي ذلك انطباعًا غير مناسب عمن يتهاون في هذه الشكليات.

وقد أثنى النبيّ ﷺ على أشج عبد قيس حين اعتنى بمظهره وحسن لباسه، فعن هند بنت الوزاع أنها سمعت الوزاع يقول: «أَتَيْتُ رسولَ الله ﷺ والأشجُّ المنذرُ بنُ عاصمٍ أو عامرُ بنُ المنذرِ ومَعهم رجلٌ مصابٌ فانتهَوْا إلى رسولِ الله ﷺ فلمَّا رأَوا النَّبي ﷺ وثَبوا عن رواحِلِهم فقبَّلوا يده، ثُمَّ نزَل الأشجُّ فعقَل رواحَلَهم، وأخرَج عَيْبتَه ففتَحها، ثُمَّ أتى النَّبيَّ ﷺ فسلَّم، فقال النَّبيُّ ﷺ: «يا أشجُّ! إنَّ فيك خَلَّتينِ يُحِبُّهما اللهُ ورسولُه؛ الحِلْمُ والأناةُ»، قال: يا رسولَ الله أنا أتخلَّقُهما أو جبَلني اللهُ عليهما؟ قال: بل جبَلك اللهُ عليهما. قال: الحمدُ لله الَّذي جبَلني على خَلَّتينِ يُحِبُّهما اللهُ ورسولُه» (أخرجه أحمد ٣٩/ ٤٩٠ وأصله في مسلم).

وتعلمت كذلك أنَّ مراعاة أعراف واعتبارات الناس لن تكلفنا الكثير، بينما تجاهلها والتهاون فيها

قد يُكلّفنا ثمنًا باهظًا، والأعراف لا ترتبط بعامل موضوعي، ولا ينبغي أن تُحاكَم إلى المنطق، أو يُثار الجدل حول تبريرها ما لم تخالف الشرع، أو يترتب عليها مفاسد في حياة الناس.

لذا فلا يسوغ لنا أن نتجاهل ما هو مهم لدى الآخرين؛ لأننا غير مقتنعين بجدواه، أو نراه أمرًا شكليًّا.

لا تضخِّم الملحوظات الهامشية

نظَّمت لي إحدى الجهات دورة تربوية خلال الإجازة الصيفية، وكانت من أكثر الدورات حضورًا وتفاعلاً، ومما لفت نظري وأعجبني الترتيب الجيِّد لها مِن قِبَل الإخوة القائمين عليها.

وتضمَّنت الدورة فترتين؛ صباحية، ومسائية، وموضوعهما مختلف.

كان حضور الفترة الصباحية أكثر، وتفاعلهم أعلى، وكانت الدورة تتصل بتربية الأطفال، ومن البديهي أن جزءًا كبيرًا منه يرتبط بشكل كبير بخصائص النموّ، وتعديل السلوك، واتصال هذه الموضوعات بعلم النفس أكثر من اتصالها بالتربية وتطبيقاتها.

وكان من بين الحضور بعض المتخصِّصات في رياض الأطفال وفي علم النفس، فوردني

منهن بعض الملحوظات حول الجانب العلمي في تخصصاتهن.

والغالب أن تلك الملحوظات وردت بسبب بعض الأخطاء التي بدرت مني في جوانب هامشية وغير مؤثرة؛ كالتي تتعلق بتفصيلات خصائص النموّ أو تفصيلات التعلم وتعديل السلوك، ونحو ذلك.

وفي حالات كثيرة أتحسس من ملحوظات الآخرين، لا بمعنى أني لا أتقبّلها؛ ولكنها تؤثّر عليَّ كثيرًا، وبمعنى أدقّ تشعرني بنوع من عدم الرضا عن ما أنتجته سواء أكان مسموعًا أم مكتوبًا.

ولقد تركت عليَّ ملحوظاتهن تلك أثرًا كبيرًا وتضخَّمت عندي؛ فولَّدت في نفسي مشاعر الإحباط.

وفي صباح اليوم التالي تحدثت في الموضوع واعتذرت للحاضرين والحاضرات عن الخلل والتقصير الذي حصل.

ففوجئت بسيل من الملحوظات المضادة تنتقد ما طرحته الأخوات من ملحوظات، ورأوا أن فيها قدرًا من المبالغة.

كان الحضور من الجنسين، غير أن العنصر النسائي كان الغالب، وقد عبَّر الجميع صراحة عن مدى استفادتهم، وتبيَّن ذلك من خلال الاستبانة التي قاموا بتعبئتها في نهاية الدورة؛ فارتحت وشعرت بأن أدائي كان مقبولًا ومقنعًا.

وذكَّرني ذلك بصديق فاضل كان من طبيعته التدقيق وكثرة الانتقاد -لا عن سوء خُلق وتتبُّع للعورات؛ حاشاه من ذلك، بل سجية وطبع شخصيّ- وقد تلقَّى عددٌ من تلامذته هذه السمة منه، وفي إحدى الفعاليَّات التي كنت منظِّمًا لها -لكني لم أحضر- شارك بعض تلامذته، وحين التقيته زودني بقائمة طويلة من الملحوظات، فأثارت لدي قلقًا حول مستوى الفعالية، لكني حين التقيت بالمنظِّمين لمست المبالغة العالية في ملحوظات تلامذة صاحبي.

من المهم جدًّا الاعتناء بملحوظات الآخرين، والإفادة منها في تطوير أدائنا، وأن نجتهد في مراجعة ما سوف نقدِّمه من أعمال في ضوء ما نسمعه منهم؛ ومع ذلك علينا أن نحذر من أمرين:

الأول: تضخيم الأخطاء الصغيرة التي قد تحصل منا؛ فجزء كبير من هذه الأخطاء ملازم للطبيعة البشرية، ولا مناصَ من حدوثه.

الثاني: تضخيم الملحوظات الفردية التي تردنا من بعض الأشخاص، ويكثر هذا في لقاءات النقاش وورش العمل؛ حيث يبدي البعض ملحوظة حول جزئية معينة، قد تكون مجرد وجهة نظر فحسب، وربما كان لها وجه من الصحة يغري بقبولها لكنها مضخَّمة أو مبالغ فيها؛ فثمة أشخاص من طبيعتهم تضخيم ما لديهم من ملحوظات، وعرضها بطريقة فيها قدر عالٍ من المبالغة، مما قد يؤثِّر على فئة من الحضور، فتتحوَّل نظرتهم تجاه حلقة النقاش أو الموضوع والمشروع إلى نظرة سلبية.

وفي مقابل ذلك توجد صورة أخرى تتمثَّل في التوجس الشديد من النقد والملحوظات، أو التهوين من شأن ما يُطْرَح من انتقاد، واعتبار أن الخطأ سِمَة بشريَّة، وأنها ليست سوى ملحوظات حول أمور جزئية.. إلى غير ذلك.

وكلا الاتجاهين غير مناسب، ولا يخدم في التوظيف الإيجابي للنقد والإفادة منه في التسديد والتطوير.

إنَّ مثل هذه الإشكالية يمكننا تجاوزها عندما نحرص على الاستماع للآخرين بتوازن، مع وضع النقد في إطاره الملائم؛ فلا ينبغي أن نُضَخِّم النقد حتى يغدو مُعِيقًا لنا، ولا ندع التبرير يسيطر علينا فنُهَوِّن من شأن كلِّ انتقاد.

وقد تعلمتُ من هذه الموقف أهمية الفصل عند التعامل مع ملحوظات الآخرين بين الملحوظات الجزئية التفصيلية، وبين الملحوظات الجوهرية التي تؤثِّر في صلب الموضوع، وهذا أمرٌ مطَّرد في سائر مواقف الحياة؛ فتعطُّل محرِّك السيارة -على سبيل

المثال- ليس كتعطُّل مسجِّل الصوت، وتعطُّل التكييف في بلد شديدة الحرارة، أو تعطُّل الإضاءة ليلاً ليس مثل تعطل علبة الماء الخاص بتنظيف الزجاج، وهكذا في عالم الأفكار والمشروعات؛ فالملحوظات الجوهرية تتطلب التعامل معها بحساسية بالغة، وإعطاءها عناية فائقة، أما الملحوظات التفصيلية فقد تكون مفيدة، ويسهم تصويبها في تجويد العمل، لكنها لا تقدح في جوهره وقيمته.

وتعلمت أيضًا أهمية الحرص على تطبيق الأدوات الموضوعية، وعلى الفصل أثناء النقاش بين ما هو موضوعي، وما يُمَثِّل وجهات نظر؛ فالتعامل مع وجهات النظر ينبغي أن يكون باعتدال؛ لأن القبول بها مطلقًا سيجعلنا أمام آراء لا تنتهي، كما أن رفضها بإطلاق سوف يحرمنا من خبرات ومعارف وتجارب بشرية متنوعة.

وتعلمت كذلك صعوبة تطبيق الأدوات الموضوعية الصارمة في كثير من المواقف؛ وحينها لا يبقى أمامنا

سوى التعامل مع وجهات النظر، حتى نصل إلى قَدْرٍ من المقاربة للموقف الصحيح الذي نبحث عنه.

وتعلمت أن التجرُّد والموضوعيَّة لا يمنعان من النظر إلى بعض الملحوظات في ضوء من صدرت منه؛ فالملحوظة الواردة من المولَع بتتبُّع التفاصيل وكثير الانتقاد ليست مثل غيره.

ومن يغلب عليه التحسُّس، ويتكلف في توقُّع الآثار السلبية ليس كمثل من يفكر بصورة معتدلة موضوعية.

أفقه مني في الشاي!

بعد وجبة عشاء مع أبناء أحد الأفاضل جلسنا نحتسي الشاي ونتجاذب أطراف الحديث.

فاجأني أحدهم حين طرح عليَّ سؤالاً حول مشروب الشاي، مشيرًا بأنه قد قرأ لي العديد من «التدوينات» في «تويتر» حول هذا الموضوع، وفهم منها بأنني من المهتمّين بهذا المشروب.

بعد وقت قصير صار الشاي موضوعًا رئيسًا في تلك الجلسة، تحدّث أحدهم عن بعض أنواع الشاي، ووصف مذاقاته المختلفة، فقاطعته بكل بثقة قائلاً: إن من يتذوقون الشاي ويعرفونه لا يحبّذون هذه الإضافات التي تطغى على مذاقه الطبيعي.

كنت أتحدث بكل ثقة موقنًا بأني أكثر الحاضرين إلمامًا بهذا الموضوع.

وقتها لم أحاول استقراء وجوههم، مفترضًا

مسبقًا أنهم سيصغون إليَّ باهتمام وحماس، استرسلت في حديثي وقلت كل ما أعرفه عن نبات الشاي، وشارك صاحب السؤال في الحديث وأدلى بملحوظات مليئة بالمعلومات الدقيقة عن الشاي، مما جعلني أدرك مدى قصور معرفتي به.

قلت في نفسي وقتها: وماذا في ذلك؟ أنا لست متخصِّصًا في الشاي، ومحبة المرء لشيء ما واهتمامه به؛ لا يقتضي بالضرورة أن يغدو مستوعبًا لكلِّ التفاصيل عنه.

بعد برهة أدركت سِرّ سعة معلوماته حول هذا المشروب؛ وذلك حين بدأ يذكر لنا تعليمات مدرّب الشاي، الذي كان يدربه في «سريلانكا»؛ حيث كان يطلب منهم قطف أوراق الشاي عقب نزول المطر مباشرة، ومقارنتها بما قبله.

ثم أسهب في الشرح والتفصيل، وقصَّ علينا كيف أنه تحوَّل من مجرد مهتمّ بالشاي إلى محترِف؛ فتلقَّى دروسًا وتدريبات عديدة عن الشاي، حتى انتهى به الأمر إلى المتاجرة به.

تواري حضوري بعد معرفتي لكلِّ هذا؛ وانتقلت من مقام الأستاذ إلى مقام التلميذ؛ فأصغيت له باهتمام وتقدير لما لديه من معلومات وخبرات.

بعد انتهاء الحديث عن موضوع الشاي أخبرتهم بكل ما دار في نفسي عند بدء الحديث، وضحكت من اعتقادي أني أعلم الحاضرين بالشاي.

فقال لي ذلك الشاب وكان ذا أدب وذوق رفيع: لا عليك؛ فقد حدث معي ذات الأمر من قبل، وذلك عندما أقللت رجلاً في سيارتي؛ فلفت انتباهه وجود أربع علب شاي بجانبي وسألني عنها؛ فأعطيته معلومات يسيرة عن الشاي ظنًّا مني بأنها تكفيه وتليق بخبراته المحدودة؛ لكنه أدهشني بكثرة ودقَّة ما يعرفه من معلومات عن هذا المشروب، فوصلت حينها إلى ذات النتيجة التي وصلت إليها أنت الآن.

وعندما بلغنا مقصده، وقبل أن نفترق أخبرني ذلك الرجل بأنه يعمل خبيرًا في الشاي لدى منظمة الغذاء العالمية.

كان الموقف محرجًا في أوله غير أنه انتهى ببداية صداقة ممتدة ومشروع مشترك.

انتهت تلك الزيارة ومضيت إلى منزلي متفكرًا في هذا الموقف الذي حدث لي.

كل يوم أدرك بأن ما نتعلمه من الأخطاء يعزز من خبراتنا في الحياة؛ فعلى الرغم من أن خطئي هنا -في موضوع الشاي- لم يكن ثقيلاً ومقلقًا، ولم يجعلني في غاية الإحراج غير أني تعلمت منه الكثير.

في أحيانٍ كثيرة نتحدث دون أن نعرف حقيقة الشخص الذي نتحدث معه؛ حتى أننا لا نعلم الكثير عن حاله ومعارفه وخبراته؛ فنقدِّم ما لدينا بثقة تامة مفترضين بأننا أفضل من هذا المستمع، ومعتقدين بأننا أكثر وعيًا وفهمًا واطلاعًا منه؛ فإن هو سأل أو اعترض فقد لا نتعمق في فهم سؤاله ولا نتقبل اعتراضه؛ بل نبقى مستمرّين في حديثنا بذات النسق، مدّعين بلسان الحال قبل المقال بأننا الأفقه والأعلم.

وعندما نكتشف بأنَّ الأمر على خلاف ما ظنناه، قد يكون وقت الاستدراك والتصويب قد فات، وأحيانًا يظهر جهلنا أمام المستمع؛ لكنَّ ذوقه الرفيع يجعله يلتزم الصمت مفضِّلاً عدم إحراجنا.

وتعلمت من هذا الموقف ألا أستهين بمن أمامي، وأن أفترض بأنه قد يكون أكثر معرفة وخبرة مني، وربما كان متخصِّصًا في الموضوع التي أحدّثه عنه، وأن عليَّ استشفاف مدى معارفه قبل أن أسهب في عرض ما لدي.

حدثني شاب لا أعرفه مِن قبل عن مشاركته في مشروع من المشروعات، فتساءلت في نفسي: وماذا يمكن أن يقدِّم؟ وبخاصة أن المشروع يتطلب قدرة علميَّة عالية، ولم يكن من اللائق سؤاله عن ذلك.

وبعد أن امتد بنا الحديث علمت أن أطروحته في كل من الماجستير والدكتوراه ذات صلة مباشرة بهذا المجال؛ فتحوَّلت أمامه إلى تلميذ مُنْصِت ومُتَعَلِّم.

وتعلمت ألا أفترض بأن الناس يتسابقون

للجلـوس إليّ، أو أن أفـترض أنهـم سـيُنْصِتُون إليَّ بإصغاء واهتمام، وسيُسَـلِّمون بما أقوله، وهذا كثيرًا ما يتسـلل للنفـس، بل ربما شـعرنا بلوم مـن أمامنا حين لا نرى منه ما نتوقَّع من الإنصات والتفاعل.

إن مَن أمامنا ليس بالضرورة أقل منا معرفةً أو خبرةً بما نحدِّثه عنه، وربما كان لديه ما يُضيف لمعارفنا ويثريها.

وتعلمت أهمية الحذر من أن قد يصل لمن أمامي، أو يلمس مني اعتقادي بأني الأفضل والأعلم؛ فينقبض مني نفسيًّا، فلا يعود حديثي عليه بالفائدة المرجوة.

وتعلمت أن طريقة إبرازنا لخبراتنا؛ أهم من خبراتنا ذاتها، ومن المهم أن نعتني بمن أمامنا؛ فليس من اللائق أدبًا وذوقًا أن نُشْعِر الطرف المقابل بأننا أعلى منهم، أو أفضل منهم؛ لا بلسان المقال ولا بلسان الحال.

ولا يجدر بنا أن نُشعره بذلك حتى وإن كان هذا

تقويمنا للواقع في حقيقة الأمر؛ فإن اضطررنا إلى الإشارة لبعض خبراتنا من باب الاستشهاد بها؛ فينبغي أن نفعل ذلك بطريقة مناسبة لا توحي للطرف المقابل بأننا نتعالى عليه، أو نجعله يشعر بأننا نزكِّي أنفسنا بثناء مُبَطَّن.

جدال في الزكاة

أحد أساتذتنا في الجامعة كان ثَرِيّ المعلومات، ويحيط بتفاصيل عديدة في كثير من المجالات العامة، إضافة إلى حسّه النقدي، مما يؤثِّر على محاضراته ودروسه؛ فيستطرد في وصف الممارسات في الواقع، وانتقاد ما لا يرى ملاءمته.

استطرد مرة -وهو يتحدث عن زكاة بهيمة الأنعام- واصفًا ما يمارسه جُبَاة الزكاة، وأساليبهم في نقلها، وآثار ذلك، ثم أردف قائلاً بأن الأَوْلَى إخراج القيمة؛ فالفقير أحوج لها من الماشية، وفي ذلك توفير لتكاليف جمع الماشية ونقلها، وتلافٍ لما يلحق الماشية من أضرار نتيجة ذلك.

اعترضت على أستاذي بأن إخراج القيمة في الزكاة لا يجوز، وأن الأصل الالتزام بما جاء في السنة النبوية.

حدثني عن المصلحة، وأن الشريعة جاءت بمراعاة المصالح ودرء المفاسد، فقاطعته بأنك من درَّسنا: بأن المصلحة لا يُنظَر إليها في مقابلة النصّ الشرعيّ، وطال بيننا الحوار أو الجدل -بعبارة أدقّ- ومعظم الزملاء يستمتعون بمثل هذا الجدل؛ لما فيه من كَسْر لروتين المحاضرة، أضف لذلك أن بعض الطلبة مُولَع بتخفيف حجم المنهج؛ فهم يرحبون بأيّ سؤال أو نقاش يستهلك من وقت المحاضرة، وينزعجون من أيّ سؤال أو نقاش يسهم في زيادة العبء في المنهج.

ثم سألني: ما الحل إذن؟

قلت له: تُعطَى للفقير ويمكَّن من بيعها.

فقال لي: هذا ما كنت أقوله منذ الصباح، ولم أقل بإخراج القيمة ابتداءً، ويبدو أنك لم تتناول الإفطار اليوم.

ثم قال بمزاحه المعهود اللطيف: أحتاج رقم هاتف والدتك لأوصيها بالاعتناء بتجهيز الإفطار

لك؛ رحمها الله، ورحم أستاذي وأنزلهم منازل الصادقين.

صدَّقت مقولته، واتهمت ذاكرتي -وبخاصة مع أعرفه عن نفسي من ضعف في الذاكرة- لكن أحد الزملاء الذين كانوا يعتنون بالكتابة مع الأستاذ أمسك بي بعد انتهاء المحاضرة، وقال: ما ذكره الأستاذ غير صحيح، وهذا ما دوَّنته عنه وأراني ما كتبه.

وفي المحاضرة القادمة أعدَّ أستاذنا الفاضل للموضوع جيّدًا، وأشاد بما تم من حوار، وكانت محاضرة ثرية في سرد أقوال أهل العلم، ونقاش الأدلة والترجيح بينها.

يميل بعض الطلاب إلى النقاش مع أستاذه مدفوعًا برغبة خفية في الظهور وإثبات الذات، أمام الأستاذ أو الزملاء، أو إشباعًا لدافع داخلي لإشعار النفس بالتميز والاطلاع.

وربما كان الدافع امتحان المعلم وإحراجه، وكثيرًا ما يمارس الطلبة هذا الأسلوب مع من يعاني

من ضعف في مستواه العلمي، أو في إدارته للموقف التعليمي.

ومثل هذه المسائل تتداخل فيها النوايا وتلتبس حتى على الشخص نفسه، فربما كانت لديه نية خفية لم يتفطن لها؛ فالدوافع تُلِحّ على صاحبها لتصرُّف مُعَيَّن، وقد لا تتجلى دوافعه الحقيقية حتى يقف مع نفسه وقفة تأمل متجرِّدًا من مطامحه الذاتية.

وربما كان المدخل لذلك السؤال لا المناقشة؛ فالسؤال الذكي يلفت انتباه الأستاذ إلى طالبه.

في المرحلة الثانوية كان أستاذ الفرائض يشرح لنا حالات الخنثى المشكل[1]، ويقسم علماء الفرائض ذلك إلى حالتين:

الأولى: مَن يُرْجَى اتِّضاح أمره، فيُنْتَظَر في قسمة التركة إلى حين اتضاح أمره؛ أذَكَرٌ هو أم أنثى، إلا إنْ

---

(١) يقصد به من يولد ولديه أعضاء الذكورة والأنوثة، فلا يُدْرَى أذكرٌ هو أم أنثى، وقد تلاشت معظم هذه الحالات مع التقدم الطبّي.

اعترض الورثة أو أحدهم.

الثانية: مَن لا يُرْجَى اتِّضاح أمره؛ فتقسم التركة بطريقة خاصة لا تخلو من بعض الصعوبة.

فسألت أستاذي: ماذا لو وُجِدَ في مسألة واحدة خنثيان، أحدهما يرجى اتضاح حاله، والآخر لا يرجى اتضاح حاله فكيف نقسمها؟ إذ كل حالة تتطلب طريقة خاصة.

فكَّر الأستاذ كثيرًا، ثم قال: لا أدري، أمهلني إلى الدرس القادم، وفي الدرس القادم قال بأنه بحث المسألة في كتب الفقه، وفي كتب الفرائض فلم يجد أحدًا نصَّ عليها، ويبدو أن خيال زميلكم واسع، ثم سألني: هل رأيت في حياتك خنثى مشكل؟ أو سمعت عنه؟ فقلت: لا، فقال: إنها حالات نادرة، فكيف تجتمع حالتان في مسألة واحدة؟

كان أستاذنا في الفرائض ذا أدبٍ جَمٍّ وتواضع، وإلا فإن هذا النوع من الأسئلة ربما يفهمه بعض الأساتذة في سياق التحدِّي والتعجيز أو إظهار الذات، ولا أبرئ نفسي وقتها.

وفي مقابله أستاذ آخر استشهد وهو يتحدث بآية الأعراف ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ﴾ [الأعراف:٤]، فقرأها (أو هم نائمون)، فصوَّبتها له، فقال لي ساخرًا: وماذا كانوا يقولون؟

قلت له: إن المقصود نوم القيلولة، وليس القول بمعنى الحديث، فزاد في سخريته وضحكه، وهممت أن أخرج المصحف وأريه الآية لكنني لم أفعل.

نُغرق أحيانًا في موقف نرى أننا ندافع فيه عن أنفسنا، ويغيب عنا المنطق؛ فالخطأ في قراءة آية من آيات القرآن الكريم يقع لأي حافظ، كما أنه لا سبيل إلى التنصُّل منه، ومنزلة القرآن أعظم من أن نُدْخِلَه في صراعاتنا وخلافاتنا.

وفي آخر سنة في المرحلة الجامعة استشهد أحد الأساتذة بآية في سورة النحل فقال: (ألا ساء ما يحكمون)، -وكان غاية في الأدب والتواضع والخلق الرفيع- فقلت له إن الصواب: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

فقال لي: بل هي: (ألا ساء ما يحكمون)، ثم التفت إليَّ عددٌ من الطلاب يقولون بلسان واحد (ألا ساء ما يحكمون).

اختلست النظر في مصفحي، فانتبه لي الأستاذ وسألني: ماذا وجدتها، فقلت: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾، فالتفتَ إلى الطلاب قائلًا: ليصوِّبها مَن كتبها منكم.

تعلمت من ذلك أهمية مراقبة النفس ومراجعة النية، وبخاصة فيما فيه حظ للنفس، وهو أمرٌ لا يختصُّ بنقاش الطالب مع المعلم؛ فكثيرًا ما يُبْتَلَى به مَن تصدَّر للناس، كالإمام حَسَن الصوت، أو الخطيب والمحاضِر، أو المُعلِّم، أو مَن يتحدث في مجلسٍ من مجالس الناس عن تجربةٍ أو خبرةٍ مَرَّ بها.

ومسائل النية دقيقة، تتداخل مع أمور كثيرة، وربما توهَّم أحدنا أو أوهم نفسه أن المصلحة فيما يقول أو يعمل، بينما النية مدخولة، والله المستعان.

وتصحيح النية لا ينبغي أن يقف عند مجرد

الاجتهاد الشخصي، بل نحن بحاجة ماسَّة إلى الاستعانة القلبية بمن يعلم السرَّ وأخفى، ومن هو أقرب إلينا من حبل الوريد، وسؤاله -سبحانه- التجرُّد والصدق والإخلاص.

وتعلمت من ذلك الواقعية في تعاملي مع طلابي وتلامذتي، فأصبحت أتفهَّم طبيعتهم، وربما أشبعت حاجة بعضهم بحُسن الاستماع له، أو الإشادة بسؤاله أو اعتراضه، أما العلاج فله وقت آخر.

وقد راعى النبي ﷺ هذا المعنى، فحين قال له العباس -رضي الله عنه- يوم فتح مكة: إن أبا سفيان رجل يحب الفَخْر، فلو جعلتَ له شيئًا، قال ﷺ: «نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن» [أخرجه أبو داود ٣٠٢١].

لا غِنَى عن التحلِّي بالواقعية لمن يسعى للتغيير في نفسه والآخرين؛ فانتقاد الممارسات الخاطئة، والحديث عن المُثُل والمطالب العليا لا يكفي في بناء النفوس السوية.

وتعلمت من ذلك مشقة الاعتراف بالخطأ، وصعوبة الإقرار للمعترض بصحة رأيه؛ فالنفس تميل إلى تبرير موقفها، وقدرة الإنسان على اكتشاف مواطن القصور في قول الآخرين وإنتاجهم أعلى بكثير من قدرته على اكتشاف قصوره وخطئه؛ إذ هو ينظر لنتاج الآخرين بعين الناقد، بينما ينظر لنفسه بعين الدفاع والتبرير.

وفي المقابل فقدرتنا أعلى في الدفاع عن أنفسنا، والتماس الأعذار والتبريرات لمواطن قصورنا وخَللنا.

ولمست مشقة الاعتراف بالخطأ عمليًّا حين أصبحت معلِّمًا فتهيأ لي من طلابي من يناقشني كما ناقشت أساتذتي، وحُجتهم معي أقوى من حُجتي مع أساتذتي، واطلاعهم أوسع، وعلمهم أغزر مني حين كنت مثلهم على مقاعد الدراسة.

كما تعلمت من ذلك أهمية مراعاة طبيعة الآخرين، وأنه ليس من الحكمة أن نَحْشُرَ الطرف الآخر في زاوية حادة -حين نختلف معه- والسعي لإلجائه

إلى الإقرار بخطئه، أو الرجوع صراحة عن رأيه.

وقد كان خير الناس تعليمًا وتربية يُرَاعِي ذلك في تعامله مع أصحابه؛ فعن سليمان بن صرد -رضي الله عنه-، قال: استبَّ رجلان عند النبي ﷺ، فغضب أحدهما، فاشتدَّ غضبه حتى انتفخ وجهه وتغيَّر؛ فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمةً، لو قالها لذهَب عنه الذي يجد» فانطلق إليه الرجل فأخبره بقول النبي ﷺ وقال: «تعوَّذ بالله من الشيطان» فقال: أترى بي بأس؟ أمجنون أنا؟ اذهب. [أخرجه البخاري ٦٠٤٨، ومسلم ٢٦١٠].

ليلة في بومبي

في رحلة مع أحد الأصدقاء الأفاضل إلى بنجلور -إحدى مدن الهند - كنا بحاجة إلى التوقف في بومباي ذاهبًا وإيابًا -ترانزيت-، واقترح علينا من نظَّم رحلتنا تغيير الناقل من بومباي إلى بنجلور؛ فالناقل الثاني أفضل -من وجهة نظر صاحبنا-، وتجربة السفر معه أكثر متعة، فاستجبنا لطلبه.

وصادف وقت عودتنا إلى بومباي نزول مطرٍ غزير لم يسمح بهبوط الطائرة؛ فاتجهت طائرتنا إلى مطار قريب بقينا فيه لساعات عدة، في ساحة المطار، وبعد إلحاح سمحوا لنا بالنزول وأداء الصلاة أسفل الطائرة.

وحين وصلنا إلى بومباي كانت رحلتنا إلى الرياض قد أقلعت.

اضطررنا للحجز على رحلة في اليوم التالي،

ورفضوا تأمين السكن؛ فنحن لم نكن مواصلين عن طريقهم.

تعلمت من ذلك أهمية الوعي بأنظمة الطيران، ومن ذلك أن تكون المواصلة مع ناقل واحد ما أمكن؛ وأن يكون بحجز واحد، فهذا يُلزم الناقل بتأمين السكن لك في حال تأخر الرحلة وطول وقت الانتظار، كما يلزمه بتأمين البديل في حال إلغاء الرحلة، أو فوات الرحلة الثانية لتأخُّر رحلتك الأولى.

وقد أفدت من هذه التجربة؛ ففي رحلة من الرياض إلى (أبيدجان) -عاصمة ساحل العاج- كانت الرحلة تتوقف في مطار أديس أبابا، ثم نواصل عبر رحلة أخرى، إلا أن الناقل توقف في الخرطوم توقفًا لم يكن مجدولاً، وامتلأت الطائرة بالركاب، ولم نصل إلى مطار أديس إلا ورحلتنا قد غادرت، فأمَّن الناقل للركاب رحلة بديلة، وسكنًا لمدة أربع وعشرين ساعة، وتأشيرة دخول إلى إثيوبيا.

ومررت بالتجربة نفسها مع ناقل آخر حين تأخرت رحلتي العابرة للقاهرة؛ فأمَّن الناقل لي

السكن والرحلة البديلة، بل عرض عليَّ أيَّ رحلة بديلة تنقلني مباشرة من محطتي الأولى إلى الرياض دون المرور بالقاهرة.

وحين اضطر الناقل لإلغاء رحلة من تونس إلى القاهرة اضطر لتأمين رحلة أخرى لي عبر مطار آخر.

وتعلمت من ذلك أن القوانين والأنظمة لا تحكمها قواعدنا المنطقية؛ وأن عدم إيماننا بمنطقية بعضها وتفاصيلها لا يعفينا من تبعة ذلك.

اشتريت علبة عسل من سائق أجرة أوصلني للمطار؛ فصادرها رجل الأمن المسؤول عن التفتيش لتجاوزها القدر المسموح بحمله من السوائل في مقصورة الطائرة، وطلبت منه أن يأخذها لأولاده بدلاً من إتلافها فرفض؛ فالنظام لا يسمح له بذلك، وقذفها أمامي في سلة المهملات.

ولخطورة حالات الطيران فالقوانين تتعامل بصرامة مع كل ما يحتمل أن يُمَثِّل شبهة أمنية، مهما كانت درجة احتمال الشبهة.

شابٌّ بدين كان أصحابه يلقِّبونه بـ(القنبلة)، سافر مع اثنين من أصحابه؛ فكان مقعده آخر الطائرة، فسأل أحدهما صاحبه وهي تتحرك استعدادًا للإقلاع: أين القنبلة؟ فقال: في مؤخرة الطائرة؛ فسمع عبارته أحد الركاب، وأبلغ طاقمَ الطائرة؛ فتوقفت الطائرة وأحيل الشباب للتفتيش والتحقيق.

من المهم جيدًا أن نعرف أنظمة الطيران وقوانينه، وهكذا أنظمة التأشيرات، والدخول إلى البلد الذي سنسافر إليه؛ فالجهل بالقانون لا يُعفِي صاحبه؛ فالقانون لا يحمي المغفَّلين -كما يقال- والجاهل لديهم غير معذور بجهله.

ومما اتخذته لنفسي -وأنصح به غيري- ألا أستخدم الطيران الاقتصادي إلا عند الضرورة؛ فالمرونة لديهم عند الحاجة للتعديل ليست بعالية، ويكثر تأخر الرحلات وإلغائها، وهم ينصُّون على ذلك في التعليمات التي نوافق عليها ولا نقرؤها.

وأما الطيران الإفريقي فمليء بالعجائب والغرائب؛

فقد حدثني أحد الشيوخ أنه سمع وهو في الطائرة صوت خـروف، فالتفت فإذا أحد الركاب قد اصطحب معه خروفًا في الطائرة، وربطه في المقعد!

وتعلمت أهمية أن نوضِّح للناس مبرراتنا ما أمكن ذلك، وبخاصة في المؤسسات الخيرية والتطوعية؛ فما هو بدهي لديك، قد يراه غيرك تحكُّمًا وتعقيدًا.

كثيرًا ما نسمع اعتراض بعض الناس على إجراءات معينة لا يفهمون دوافعها، وحين تشرح لهم ذلك يتغير موقفهم.

وأولى من يحتاجون لوضوح المـبررات هم العاملون في المؤسسات نفسها؛ فتفكير القيادات يختلف عن تفكير العاملين.

مجهول وابني رعد

«أضع رسالتي بين يديك للاستشهاد بها في وَعْظ الناس»، هكذا ختم رسالته الطويلة التي أرسلها لي تحكي قصته مع معصية لازمها فأُصيب بسببها بآفات عدة.

شدَّتني رسالته، رأيت فيها حِرْصَه على توظيف مشكلته لنفع الآخرين، وهذا غاية ما يملكه، ربما سمع بهذه القصة غارقٌ في وحل معصية، أو تائه في غفلة، فكانت سببًا في هدايته وإنقاذه، فنال مثل أجره.

هكذا حدثتني نفسي حين قرأت الرسالة، وأن توظيفها ربما كان له أثر بالغ في المستمعين؛ فالقصة تفعل فعلها في النفوس، وغرابة القصة تزيد من جاذبيتها والتعامل معها.

عدت مرة أخرى لقصة صاحبي فرأيت أنها

تفتقر لأبسط قواعد المنطق؛ فكاتبها إما أنه يعاني من اعتلال نفسي، أو قصور ذهني، وربما صنعها ليستدرجني ويجعلها شاهدًا على ضحالة من يتصدَّوْنَ للوعظ، وسهولة تمرير الأكاذيب عليهم.

وبعدها بسنوات لحق بي شاب في الحرم النبوي، وحدثني عن ماضيه السيئ، وكيف هداه الله -عز وجل-، وأنه كان على علاقات سيئة مع عدد من الفتيات؛ لدرجة أنه يأتي لمنزل أهلها -وهم من القبائل المحافظة- فيستقبله والدها في المجلس، ويقول له أريد فلانة؛ فيدعوها ويتركهما معًا وينصرف، وهي ليست حالة واحدة بل حالات عدة!

ويختم حديثه بأنه يتبرع لي بهذه القصص لاستخدامها في وعظ الناس وتذكيرهم، لم أحتج بعدها وقتًا للتفكير في عدم منطقية هذه الأحداث، وبخاصة مع تكرُّرها.

أفهم أن حالة شاذة ما قد تحصل لأيّ ظرف، لكن تكرار الغرائب والشواذّ لدى شخص بعينه يقلِّل من فُرَص تصديقها، أو قبول كونها حالة استثنائية.

أما ابني رعد -كما كان يسمِّي نفسه وهو يراسلني- فهي قصة حقيقية عايشت فصولها أولاً بأول معه ومع أخيه -وكان ذا عقل وديانة-، شابٌّ لطيفٌ، حَسَن الظن بالآخرين لدرجة مبالَغ فيها، حاول أحد الفسقة استدراجه، وهدَّده بالاختطاف، صدَّق التهديد والقدرات الخارقة التي حدَّثه عنها ذلك الفاجر، رغم محاولتي العديدة لإقناعه بكذب ذلك الذي يتهدَّده، وأنه لا يملك ما يزعم من قُدُرَات، همَّ بالانتحار، وأنقذناه من ذلك بصعوبة، لكن معاناته لم تَنْتَهِ.

اتصل بي أخوه ليخبرني أنه أصيب بأزمة قلبية، وتوفي وترك لي هذه الرسالة: «لا أدري بماذا أبدأ هذه الرسالة أنا رعد... عمري ١٧ سنة، أدرس بالصف الثاني الثانوي، وتخصصي الدراسي علمي.. أكتب إليك رسالتي هذه ودموعي تسابق حروفي، لا أحسّ لهذه الحياة طعمًا، وأنا أحسّ الموت أقرب ما يكون إلى قلبي، صرت أكره الجلوس إلى الناس؛ لأني اكتشفت أنهم أصحاب قلوب مريضة، أما

أصحاب القلوب الطيبة فهم قليل في هذا الزمن.. وضعت لك صورًا لي لكي تذكرني وتدعو لي، وأنا ولدك رعد وأنا الان أحس أني في ختام الحياة، ولكن يكفي أني تخلصت من الحيوان اللئيم، وسامحني يا شيخ أني أتعبتك معي كثيرًا».

مازحني أحد طلابي لِمَ لمْ تذكر هذه القصة؟ لو كانت لدى غيرك لأصبحت صيدًا ثمينًا وكان له معها شأن آخر.

قلت له: ليس كل ما تُوقِن بصحّته يمكن أن يتقبَّله الناس، وليس من الحكمة أن تصنع من حكاية ما معركة يغفل الناس فيها عن جوهر الموضوع وهدف الاستشهاد، وربما امتدَّ ذلك لاتهام المتحدِّث بتعمُّد الكذب سعيًا وراء الشهرة.

ليس إيراد القصص مذَمَّة في كلِّ حالٍ، كيف لا وكتاب الله -عز وجل- مليء بالقصص، وقد أمر الله -تبارك وتعالى- نبيَّه ﷺ بقصِّ القَصَص؛ فقال -سبحانه-: ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:١٧٦].

حين انتشرت ظاهرة القُصَّاص تناول علماء السلف الظاهرة باعتدال وتوازن، ولخَّص ابن الجوزي -رحمه الله- الموقف من القُصَّاص بقوله: «ومن تلبيسه عليهم -الفقهاء- أن يُحسِّن لهم ازدراء الوعاظ، ويمنعهم من الحضور عندهم، فيقولون: من هؤلاء؟ قُصَّاص، ومراد الشيطان أن لا يحضروا فِي موضع يَلين فيه القلب ويخشع، والقُصَّاص لا يُذَمُّون من حيث هذا الاسم؛ لأن اللهَّ -عز وجل- قَالَ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، وقال -سبحانه-: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ﴾ ، وإنما ذمّ القُصَّاص لأن الغالب منهم الاتساع بذكر القصص دون ذكر العلم المفيد، ثم غالبهم يخلط فيما يورده، وربما اعتمد على ما أكثره محال، فأما إذا كان القصص صدقًا، ويوجب وعظًا فهو ممدوحٌ، وقد كان أحمد بْن حنبل يقول: ما أحوج الناس إلى قاصٍّ صَدُوق» (تلبيس إبليس ١١٠-١١١).

وقال الإمام أحمد: «يعجبني أَمْر القُصَّاص؛ لأنهم يذكرون الميزان وعذاب القبر» [القصّاص والمذكرين لابن الجوزي ص ١٧٤].

وتعلمت من ذلك أن يقينك من صدق ما تقول، وجزمك بما توصلت إليه لا يكفي لتبرير حديثك عن أمر ما، أو تبنّي حكاية من الحكايات؛ فهذا شرط ضروري لكنه لا يكفي، فلا غنى عن السؤال المهم: ما جدوى الحديث عن ذلك وإيراده؟ وكيف سيتلقاه الناس؟

قال لي أحدهم: ربما تكون تلك الحكاية صحيحة؛ فليس كل ما لا ترى منطقيته هو بالضرورة كذب.

قلت له: هب أنها صحيحة، فكم من الناس الذين يسمعونها سينكرها؟

فقال: ربما ليسوا بأقل ممن يقبلها.

وقلت له: ولو حدّثت الناس عن أمر عاينته وعشته ألا يمكن أن يوجد فيهم من يتهمني بالخطأ، وربما الزيادة والنقص؟

لقد كان السلف الكرام يعون هذا المعنى، ويراعون واقع الناس حين يحدثونهم، قال علي -رضي الله عنه-: «حَدِّثُوا الناسَ بما يعرِفون؛ أتُحِبُّونَ أن يُكَذَّبَ اللهُ ورسولُه؟» [أخرجه البخاري ١٢٧].

وعن هشام بن عروة قال: قال لي أبي: «ما حدَّثت أحدًا بشيء من العلم قط لم يبلغه عقله إلا كان ضلالاً عليه» (جامع بيان العلم وفضله، ٨٨٩).

وقال أبو قلابة: «لا تُحدِّث بحديثٍ مَن لا يعرفه، فإن مَن لا يعرفه يَضُرُّه ولا ينفعه» (جامع بيان العلم وفضله، ٨٩٠).

وتعلمت أن التأنِّي في الحديث عما تسمع قد يفتح لك أبوابًا كنت عنها غافلاً، وتقليب الأمر والتأمل فيه يكشف لك بعض ما غاب عنك لأول وهلة.

وليس هذا قاصرًا على ما يُتَحَدَّثُ به أمام الناس؛ فكثيرٌ مما نقرِّرُه في حياتنا قد يبدو لنا بعد تأمُّله بخلاف ما كان لأول وهلة، فربما اتجهنا لقبول أمرٍ ما أو رفْضه، وبعد يوم أو يومين بدا لنا أن الأَوْلَى خلافُ ذلك.

ولهذا كانت العرب تحذِّر من الرأي الفطير، وهو كما يقول عنه ابن منظور: «وكل شيء أعجلته عن إدراكه، فهو فطير. يقال: إياي والرأي الفطير؛ ومنه قولهم: شر الرأي الفطير» [لسان العرب ٥/ ٥٩].

سؤال خارج المقرَّر

في أول سنوات تدريسي في المعهد العلمي كان ضمن جدولي تدريس مقرَّر المطالعة، والمفترض أن يركِّز المقرَّر في التدريس أو التقويم النهائي على تدريب الطلاب على القراءة، وبخاصَّة مع ضعف مستوى الطلاب في القراءة.

ومثل هذه المقرَّرات كانت محل جدل وتجاذبات عدة، في جدواها، وأهدافها، وأسلوب تدريسها وتقويمها، لذا فقد مرَّ أسلوب التقويم في المقرَّر بمراحل مختلفة كان منها أن يتضمَّن التقويم النهائي اختبارًا تحريريًّا، واختبارًا شفويًّا تُقسَّم فيه الدرجة النهائيَّة بينهما.

كان الاختبار في الفصل الدراسي الثاني مركزيًّا؛ فالأسئلة تأتي من إدارة الامتحانات في الجامعة لكل المعاهد العلمية، ويُحدَّد في كلِّ فصل دراسي

موضوعان للاختبار التحريري، واعتمدت على ذاكرتي في إعطاء المعلومات للطلاب؛ فأخطأت في أحد الموضوعين، وفوجئ الطلاب بالأسئلة في غير ما طُلِبَ منهم قراءته.

كانت ضجةٌ يسيرة، ثم انتهى الأمر بسلام، وربما كنت سأدفع ثمنًا باهظًا، لكنَّ الله سلّم.

تعلمت من ذلك أن بعض الأخطاء اليسيرة ثمنها باهظ، والعبرة ليست بالخطأ بل بما ينشأ عنه؛ فالحوادث المميتة ربما كان مصدرها غفلة لحظات، ورب إهمال غير متعمد يحصد عشرات أو مئات من الأرواح.

وفي العلاقات الأسرية والاجتماعية، والتواصل بين الناس، قد يهدم موقفٌ أو كلمةٌ واحدة ما تمَّ بناؤه في سنوات من صلة وعلاقة.

وتعلمت ألا أثق بذاكرتي في المهم من المعلومات، وبالأخص أن لدي معاناة مع الذاكرة، لا سيما تذكُّر الأشخاص الذين أقابلهم، وطالما سبَّب لي ذلك

حرجًا، وسوء تفسير في بعض الحالات؛ إذ يفترض بعض من ألتقيهم أني قد عرفتهم، والواقع أني كمن يراهم أول مرة.

ولو كان كل من لقيت فلم تعرفه أبلغك العتب لأمكن شرح عذرك، وبيان طبيعتك، لكن ليس كل الناس كذلك؛ فكثير منهم يُسِرُّها في نفسه ويمضي، وربما كان مُحِقًّا في ذلك؛ إذ هو يَفترض أنك قد تعمَّدت تجاهله.

ولقد أنِست بما ذكره الشيخ عليّ الطنطاوي عن الشيخ أمجد الزهاوي -رحمهما الله-، فقد قال: «أما ذهوله ونسيانه فعَجَبٌ من العَجَب، ولقد جمعت في فصل من كتابي: صور وخواطر بعض أخبار الذاهلين النَّسَّائِينَ من العلماء، ولكني ما وجدت فيهم مثله، إنه ينسى ما كان قبل نصف ساعة، ويذهل عما حوله» (صور من الشرق في إندونيسيا، ص٤٧)، ثم ذكر نماذج من نسيانه.

وتعلمت أيضًا أهمية التركيز فيما هو مهم، وإعادة النظر فيه، وعدم الاكتفاء بالنظرة الأولى، فقد

اشتركت مع زميل لي في تأليف أحد الكتب لوزارة التربية والتعليم، وكان صاحبي معتنيًا بالإخراج، وتوظيفه في التعبير عن الفكرة.

طلب صاحبي من المصمِّم تضمين صفحة عنوان أحد الفصول صورة مبنى من الأسفل للأعلى تُعَبِّر عن الفكرة التي يعالجها هذا الفصل.

وراجعنا الكتب بعد الانتهاء من تصميمه، ورُوجِعَ من المختصين في الوزارة، وبعد طباعته وتوزيعه بعامين اكتشف أحدهم أن الصورة ترجع لمبنى يحمل رمزًا دينيًّا لأحد الطوائف المبتدعة، وأُثِيرَتْ ضجَّة إعلاميَّة حول الكتاب، وتداول الناس تفسيرات عديدة، ليس منها أنه خطأ غير مقصود، رغم أن الصورة صغيرة، ولا يمكن إدراك تفاصيل محتواها إلا بعد تكبيرها.

وحين كنت باحثًا في إدارة تطوير الخطط والمناهج في المعاهد العلمية التابعة لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وقع خطأ في غلاف أحد كتب

الفقه، حيث كتب العنوان (الفقة) بالتاء لا الهاء، ورغم مراجعته من جميع فريق العمل في الوحدة إلا أننا لم ننتبه للخطأ إلا بعد وصول الكتاب للطلاب.

وتعلمت أيضًا التماس العذر للآخرين فيما يقع منهم من خطأ تجاهي أو تجاه غيري؛ فليس من العدل أن ألوم الناس فيما أعذر فيه نفسي.

والتماس العذر للآخرين لا يعني تصويب موقفهم، بل قد يكفي في ذلك حُسْن الظن؛ فالخطأ البشري قلَّما يَسْلَم منه بَشَرٌ، وثبوت الخطأ أو التقصير لا يلزم منه بكلِّ حالٍ سوء النية، وأن الأمر قد تمَّ تبييته لقصد الإساءة.

والفصل بين الخطأ ونية صاحبه مهم جدًّا؛ فالخطأ يراه الناس ماثلاً أمامهم لا يحتاج إلى برهان أو إثبات، لكنهم قد يقفزون على الواقع، ويرون أن ثبوت الخطأ دليل على سوء النية، والرغبة في إيذاء الآخرين والإساءة لهم، وبين الأمرين فرقٌ كبيرٌ.

كيف نتعامل مع أخطائنا؟

بعد هذه الرحلة مع تلك المواقف المتنوعة المتباينة في شخوصها وتفاصيلها، يمكن أن أُدَوِّنَ بعض الخطوط العامَّة التي تُعيننا على التعاطي الإيجابي مع الخطأ، ومن ذلك ما يلي:

أولاً: تجنُّب الوقوع في الخطأ:

مهما قلنا بأن هناك فوائد وآثارًا إيجابية في الخطأ؛ فإن علينا الاجتهاد في تجنُّبه والحذر منه، ومما يعين على ذلك:

التفكير الجيد العميق قبل المضي في أيّ عمل، والتخطيط لأعمالنا ومشروعاتنا؛ فالتخطيط ينقل العمل من العفوية إلى القصد، ويتطلَّب منا توفُّر المعلومات، وتوقُّع النتائج.

الوعي واليقظة التامة أثناء القيام بالعمل؛ فقد نملك فكرةً شاملة لما نريد فعله، وقد نُخطِّط تخطيطًا

جيدًا، ونرسم طريقًا ملائمًا لسير العمل؛ ولكننا قد نغفل عن التفكير ومراقبة الأداء أثناء انهماكنا في العمل؛ فتحدث انحرافات في سير الخطة، وتستجد مؤثرات لم تكن في الحسبان، وباكتشافنا الفوري لها سنُقَلِّل من الأخطاء، وكمثالٍ على ذلك الحالات الصِّحِّيَّة الحرجة كالأورام وحالات ضغط الدم والسكري، وغيرها من الأمراض التي يسهل علاجها بالاكتشاف المبكِّر لها.

ومن المهم أن نعي أن التخطيط والتفكير الجيِّد قبل العمل لا يمكن أن يمنع الخطأ بكل حال، أو يحوِّل نسبة وقوعه إلى الصفر كما يقال؛ فالتخطيط عملية بشرية تنطلق من التفكير، وتُبنَى على المعلومات المتاحة، كما تنطلق عملية التخطيط من افتراض نتائج بناء على مقدمات محددة، وكل ذلك عمل بشري لا يخلو من الخطأ.

كما أن التخطيط لا يحمينا من مفاجآت لم نَحسب لها حسابًا، ولم تكن في مقدورنا.

لكنَّ التخطيط مع كل ذلك يزيد من وعينا كثيرًا بما نعمل، ويقلِّل مِن فُرَص وقوع الأخطاء.

ثانيًا: التخفيف من تبعات الخطأ:

في أحايين كثيرة قد لا نملك منع وقوع الخطأ؛ إما لأنه خارج عن إرادتنا أو لأننا لم نكتشفه مبكرًا، فنجد أنفسنا أمام تبعاته، حينها يكون خيارنا السعي للتقليل من تبعاته، ودَفْع ما يمكن من مفاسده.

ففي العلاقة الزوجية -على سبيل المثال- قد لا نستطيع مَنْع حدوث توتُّر بين الزوجين، أو مَنْع وقوع المشكلات، لكن بإمكان كل طرف امتصاص الكثير منها من خلال التحكم بردود الأفعال، وأساليب التعامل مع الطرف الآخر، مما يقلِّل من آثار هذه المشكلات.

لا ينبغي لنا أن نقف بين خيارين حادَّيْن؛ إما منع وقوع الأخطاء تمامًا، أو الاستسلام لها بالكلية؛ فحدوث الخطأ واقع لا مَفَرَّ منه، وعندها لا يبقى أمامنا سوى التقليل من آثاره السلبية.

ومثل ذلك ما يتعلَّق بتربية الأولاد؛ فقد لا نوفَّق في صياغة شخصيَّات أولادنا كما نتمنى؛ سواء في جانب تدينهم أو تعليمهم أو تكوينهم الأخلاقي والسلوكي -بِغَضِّ النظر عن مدى مسؤوليتنا في حدوث ذلك- فعندما نكتشف بأنهم ليسوا على الصورة التي نريدها فلا يسوغ الاستسلام لهذه النتيجة؛ بل علينا أن نسعى إلى معالجة آثار الأخطاء التربوية التي أوصلتهم إلى هذه الحال، ونجتهد للحفاظ على قَدْر من التديُّن لديهم وحمايتهم من الانحرافات الخطيرة، والاعتناء بتحصيلهم الدراسي، ومساندتهم حتى يفوزوا بفرص عمل أفضل.

وهكذا ما يتعلَّق بالخسائر المالية التي تحدث للأفراد والمؤسسات والشركات أيًّا كان مصدرها سواء أكان نتيجة تقصير شخصي، أو غير ذلك، فإن لم نستطع منع وقوع الخسائر فلا بدَّ من التقليل منها إلى أقصى حدٍّ ممكن.

من كَسَدت بضاعته ولم يستطع بيعها بربح مناسب؛ فليعمل على بيعها بخسارة أقلّ، وهذا أوْلَى من بقائها في المخازن وتعرُّضها للتلف.

ومَن تعثَّر له مشروع ما؛ فعليه المُضِيّ قُدُمًا في تنفيذ بقية مشروعاته، ولو بخسائر محدودة؛ فهذه الخسائر لن تكون أضرَّ من استسلامه للخطأ.

ثالثًا: الشجاعة في تحمُّل تبعات الخطأ:

حينما نرتكب خطأ ما علينا التحلِّي بالشجاعة وتحمُّل تبعاته على كافة المستويات.

علينا الاعتراف بالخطأ أمام أنفسنا أولاً، وأمام فريق العمل ثانيًا -إذا كنا في عمل جماعي-، والاعتراف هنا ليس الهدف منه جَلْد الذات ولا اللوم، وإنما هو تقرير للمسؤولية، مما يقودنا إلى مواجهة المشكلة، والمضي لإيجاد آليات معالجة لها، وإزالة آثار الخطأ، أو اتخاذ قرار بالانتقال إلى مجال عمل آخر يكون أكثر ملاءمة لنا؛ فخداع النفس بالتنصل من مسؤوليتنا عند حدوث الخطأ سيقودنا إلى تكريسه والإيغال فيه.

وهذا الأمر يحتاج إلى تقدير المصلحة والمفسدة؛ إذ تقتضي بعض المواقف الاكتفاء بمعالجة ما يمكن تداركه من آثار الخطأ.

وكلما زاد اتصال الأمر بذواتنا أصبح بحاجة إلى مزيد من التجرُّد، والحذر من إلباس المصالح الذاتية لباس المصالح الشرعية، وتحويل الموقف من اعتراف بالخطأ إلى دفاع عن النفس.

فهناك مَن يمارسون الحِيَل النفسية فيحيلون الخسائر الشخصية إلى مفاسد تتصل بمجالاتهم وتؤثر عليها، ويخلطون بين جانبهم الشخصي والمصلحة الدعوية، وفي النهاية يظهر قصور أدائهم، لأنه لا يمكن الاستمرار في مخادعة النفس والغير إلى ما لا نهاية.

رابعًا: معالجة ما يمكن علاجه:

إن التبعات ملازمة لكل خطأ، وعلاج ما يمكننا علاجه من تلك التبعات أمر مهم؛ فعندما يرتكب أحدنا خطأ ما ترتسم له صورة سلبية لدى الآخرين،

مما يتطلَّب منا أن نقوم بجهد يمحو تلك الصور السلبية، ويعيد بناء صورة ذهنية إيجابيَّة عن أفرادنا أو كياناتنا.

حين يقع الخطأ على شريك الحياة، أو على الأولاد، أو فريق العمل فبالإمكان معالجته من خلال الاعتذار أولاً، ثم شرح الموقف، وإبداء الاستعداد للتصحيح وتحمُّل التبعات، ثم القيام بتدابير وأفعال إيجابية تؤدِّي إلى امتصاص السخط وتحسين صورتنا الذهنية لديهم.

وليس شرطًا أن يُصْحَب كل خطأ صغير أو كبير باعتراف صريح بالخطأ؛ فثَمَّة أخطاء لا تستحق الوقوف عندها، وقد لا تتطلب الاعتراف أو الاعتذار، إنما تصحيحها بتعامل حسن، أو لفتة إيجابية.

خامسًا: التوظيف الإيجابي للخطأ:

بعض الأخطاء يقع دون أن نملك دَفْعه أو التقليل من تبعاته، فنحن لم نتوقعه، أو كان نتيجة

أمر طارئ ليس في الحسبان، فليس أمامنا سوى أن نقف ونتساءل:

كيف يمكننا الاستفادة من هذا الخطأ؟ أو: ماذا تعلمنا الأخطاء؟

وحتى نصل إلى التوظيف الإيجابي للخطأ علينا الحذر من الوقوع في فخّ التبرير والدفاع عن النفس، ويجدر بنا تجاوز موقف الدفاع عن النفس إلى التفكير الجيِّد في كيفية الاستفادة من الخطأ والاعتبار بالدرس؛ فالخطأ قد تكون له آثار إيجابية يمكن الاستفادة منها للارتقاء بالذات، ومن أبرز هذه الآثار:

١- معرفة قَدْر النفس واكتساب فضيلة التواضع:

فكل إنسان في غمرة أدائه، وتواتر نجاحاته أيًّا كان مجال عمله قد يُصَاب بالغفلة، فينظر لنفسه نظرة عالية، ويمتلئ بثقة مفرطة بذاته، قد تُنْسِيه ضعفه البشري، وافتقاره إلى ربه -عز وجل-؛ فيذهل عن حقيقة أنَّ كل ما يملكه إنما هو بتوفيق وعون

الله -سبحانه- وتعالى-، فيجيء الخطأ كإشارة تُوقِظ الإنسان من غفلته وتُذَكِّرُه بضعفه وقصوره، وتدعوه إلى الرجوع إلى مولاه، والاستعانة به -سبحانه-.

٢- الوقوع في الخطأ يدفعنا لبذل مزيد من الاستعداد والجهد:

فإن كثيرًا من أخطائنا منشؤها التقصير في بذل الجهد؛ إما بإغفال الإعداد المسبق والدراسة الجيدة، أو بالتهاون في جانب المراقبة والمتابعة أولاً بأول أثناء التنفيذ، ولربما اعتمد الإنسان على قدراته ومهاراته وخبراته، وظنَّ بأنه غير محتاج لبذل مزيد من الجهد في إعداد وتنفيذ العمل، وعندئذ يكون وقوع الخطأ إشارة له ليرجع إلى فضيلة الاجتهاد والتهيؤ والإعداد المسبَق لكلِّ عملٍ.

فالخطيب الذي اعتاد على اعتلاء المنابر وإلقاء المواعظ والدروس؛ قد يتصدَّى للحديث في محفل عن موضوع ما دون إعداد مُسْبَق؛ فيفاجأ أثناء حديثه بغياب بعض النصوص أو الشواهد عن

ذهنه؛ فيفقد قدرته على الاستدلال، بل قد يُفاجَأ بأسئلة في صلب ما تحدث عنه فلا يجد لها جوابًا.

ولهذا كان بعضهم إذا طُلِبَ منه أن يتحدث دون استعداد مسبق يقول: «لا أشتهي الخبز إلا بائتًا»، أي: أنه لا يحبِّذ التحدُّث دون إعداد مُسْبَق.

٣- اكتشاف جوانب القصور في الذات:

إن العديد من الأخطاء تقع بسبب جهل أو قصور لدى الشخص؛ فهناك -على سبيل المثال- مَن يتَّسم بالاندفاع والعَجَلة وعدم التأني في الأمور؛ فتقوده سجيته للبدء في العمل، والمُضِيّ خطوات فيه قبل إنضاجه، دون دراسة التحديات والمشكلات وغير ذلك، مما يقوده إلى الوقوع في الخطأ.

ومِن الناس مَن هو سريع الغضب في تعامله مع أسرته ومع الآخرين؛ فيُؤَثِّر الغضب سلبًا على علاقاته؛ مما يؤدِّي إلى خسارته للكثير في مسيرة حياته.

وصِنفٌ آخر من البشر تنبُع كافة مشكلاته من عدم المبالاة؛ فهو لا يعطي الأمور الاهتمام اللائق

بها، فيقع في الأخطاء على كافة المستويات.

وهكذا نرى بأن كثيرًا من أخطائنا تعود إلى قصور ذاتي، وهنا تكمن فائدة الأخطاء حين تَكشف للإنسان جوانب القصور لديه؛ فيعالجها ليتلافى الوقوع في الخطأ مستقبلاً.

٤- ترسيخ المعاني البدهية في الذهن:

يعاني كثير من الناس من انفصامٍ بين الوعي بالمفاهيم والمعاني وتطبيقها في واقع حياتهم، ومع وجود أخطاء في السلوك تُصدر تلك المعاني تنبيهًا يرغم الشخص على التوقُّف والإصغاء لصوت العقل، فلا ينبغي أن نكون مُتَمَكِّنين على المستوى النظري، ومتجاهلين على المستوى العملي.

وعلى سبيل المثال؛ كلّ إنسان يَعرف بأن كل عمل لا بدَّ أن يصحبه إعدادٌ جيّد مُسْبَق؛ لكنَّ هذه الحقيقة البديهية قد لا تستقر وتترسخ في ذهنه إلا عندما يقع في الخطأ.

الخاتمــــة

هذه سوانح وحكايات وذكريات، لا يجمعها جامِع، ولا ينظمها ناظِمٌ سوى أنها أخطاء جانبني فيها الصواب.

سطَّرتها لتُعينني على أن أقول لنفسي وقرائي: إن الخطأ لا يعني نهاية المطاف، وإن كثيرًا من النجاحات صنعتها الأخطاء، وكثيرٌ من الأفكار الجيدة وُلِدَتْ من رحم تجربة فاشلة.

سطَّرتها لتُعينني على أن أعرف قَدْر نفسي، وألا يغرّني نجاحٌ حقَّقته؛ فأنسى ضعفي، وأغفل عن قصوري.

مواقف الفشل والإخفاق عديدة متنوِّعة، أحيانًا نراها ونعتبر بها، وأحيانًا نتحاشى تذكرها، أو التفكير فيها.

وتارة نتكلف التبرير لأنفسنا والاعتذار لها، ولو

ضاقت بنا مضايق الأعذار اعتذرنا لأنفسنا بأننا بشر لا نسلم من الخطأ، ولو تعاملنا مع أخطاء إخواننا كما نتعامل مع أخطائنا لذابت كثيرٌ من حواجز الخلاف والشقاق.

التعامل مع الخطأ يحتاج إلى توازنات عدة؛ فالإفراط في لوم النفس قد يكون أسوأ من الخطأ ذاته، كما أن الإفراط في الاعتذار لها مِن أكبر عوائق التصحيح والاعتبار بالتجارب.

وكما أن تضخيم الشكليات والجزئيات آفة، فتهوين ما حقُّه الاعتناء آفة أخرى.

أحمد الله الذي هيَّأ لي أسباب كتابة هذه التجربة، ويسَّر لي إتمام هذا الكتاب، وأتمنى أن أكون قد وُفِّقْتُ في منح نفسي وإياكم فرصة لرؤية الخطأ من زوايا مختلفة، وتقبُّل جانب الضعف البشري الكامن في كلِّ إنسان، وأنتظر تلقِّي تغذية راجعة منكم تُثْرِي تجربتي الخاصة مع الخطأ.

وصلى الله وسلم على نبيه المعصوم وآله وصحبه،،،،

المحتويات

مقدمة ٥

مدخل في التعامل مع الأخطاء ١١

عتاب لم أنسه من فتاة ١٧

مع المشرف التربوي ٢٨

مع معلِّمي القرآن الكريم ٣٥

التصريح بما لا ينبغي التصريح به ٤٦

المشورة غير الناضجة ٥٦

نظراتك.. قد لا يراها الناس بريئة!............... ٦٣

إهمال بعض التفاصيل قد يؤذي ٦٨

بين مكة والخرطوم ٧٤

خطيب الضرورة ٨٧

لا تستشر مثبِّطًا ٩٥

محاضر حاسر الرأس ! ١٠٤

لا تضخّم الملحوظات الهامشية ١١٠
أفقه مني في الشاي! ١١٧
جدال في الزكاة ١٢٤
ليلة في بومبي ١٣٤
مجهول وابني رعد ١٣٩
سؤال خارج المقرَّر ١٤٦
كيف نتعامل مع أخطائنا؟ ١٥١
الخاتمة ١٦٢
المحتويات ١٦٤